

كتب سياسية



الكتاب الخامس بعد المائة مجموعة عربية ١٠٠٪

double

عمان

قديمًا... وحديثًا

محمد علي الزرقا

الخزائن الثاني

مجموعة عربية ١٠٠٪
تبحث في مشاكل الساعة الدولية
السياسة والاقتصادية والاقصادية
من وجهة النظر العربية
تصنيفها اللجنة

كتب سياسية

صدر من هذه المجموعة مائة كتاب

الكتاب الواحد بعد المائة : خطاب الرئيس جمال عبد
الناصر في الاقليم الشمالي

الكتاب الثاني بعد المائة : حقيقة الشيوعية

الكتاب الثالث بعد المائة : ثورة التبت

الكتاب الرابع بعد المائة : اسرائيل في الميزان

الكتاب الخامس بعد المائة : عمان .. قديمًا .. وحديثًا
الجزء الاول

الكتاب الخامس بعد المائة : عمان .. قديمًا .. وحديثًا
الجزء الثاني

التمن ٣

١٤٢٠ هـ.

M. Custers

Cairo, febr. '70

كتب سياسية
الكتاب الخامس بعد المائة

عمان

قديمًا ... وحديثًا

الجزء الثاني

محمد علي الزرقا

الفصل العاشر

النفوذ الانكليزي

تغلغله • تطوره • منافسوه

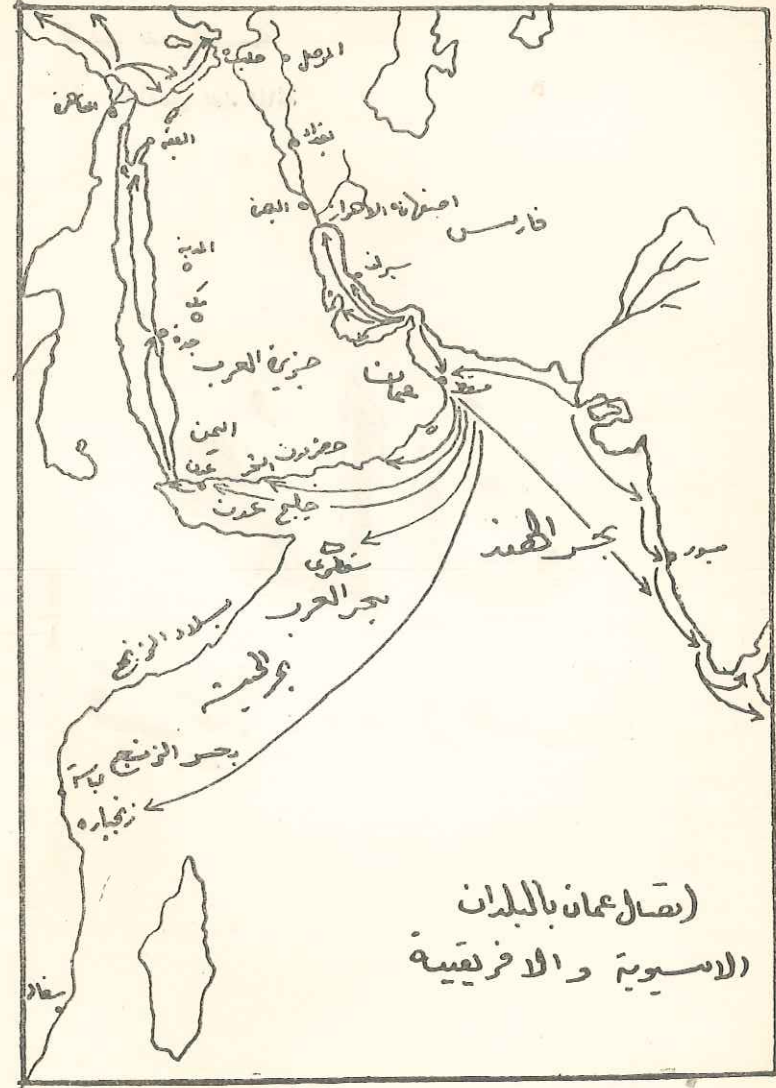
تغلغل النفوذ الانكليزي :

منذ أن وصلت انكلترا الى الهند ، وأصدرت الملكة اليزابيث مرسومها الشهير في عام (١٦٠٠) بتحويل شركة الهند الشرقية ، حق احتكار التجارة في الهند أصبحت الهند ، قوام حياة الاستعمار الانكليزي ، ودرة التاج البريطاني ، والعامل الاكبر في تفوق انكلترا ، وسطوتها ، خلال ثلاثة قرون ، هي (القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر) ، بل وحتى أوائل القرن العشرين . لقد نهب الانكليز كنوز الهند - خلال حكمهم لها - ، واستطاع التجار الانكليز ، أن يجمعوا أكداس الذهب والفضة وغيرها من المواد وأن يقيموا - بواسطة ذلك - الرأسمالية الصناعية في بلادهم . تلك الرأسمالية ، التي أخذت تزدهر في الوطن الام (بريطانيا) ، ثم تفيض منها مع الزمن ، الى البلاد الاخرى ، وخاصة الى المستعمرات . . . حيث تقوم باستغلال اكبر ، لشعوب المستعمرات ، ولثرواتها الدفينة .

واتخذ الانكليز من الهند ، سوقا أولى ، يصرفون منتجاتهم فيها ويحصلون من مواردها الاولى ، على ما تحتاج اليه صناعتهم . ثم تحولت الهند ، الى حقل واسع ، لاستثمار رؤوس الاموال الانجليزية واستغلال الشعب الهندي ، وامتناع قواه البدنية ، في ظروف قاسية مهينة ، لا حدود لقسوتها . دون أن يقيموا أى وزن ، لكرامة الانسان ، أولمبدأ من مبادئ القانون الدولي . . .

ولم تكن تختلف ، معاملة بريطانيا بالنسبة لاصدقائها أو أعدائها فطبيعة وجودها هو استغلال العدو والصديق . الحليف والناشر ، بدون تمييز .

كانت انكلترا لا تتردد ، من أن تخون من وثق بها . أو أن تتخلى



خريطة تبين موقع عمان بالنسبة للهند

عن حلفائها ، في اخرج الموانئ ، أو أن تنكث بالعهود التي أبرمتها .
أو أن تمون أعداء أصدقائها ، فتاريخها زاهر بهذه المخازي .
كان المقيمون البريطانيون في المستعمرات ، أو البلاد الأخرى
التي ترتبط ببريطانيا ، لا يمثلون دولتهم فقط . بل يمثلون بيوت
المال الانكليزية بالدرجة الاولى ، كما يمثلون مصالح البعثات
التبشيرية ، ومؤسسات العملاء والجواسيس ، بل كان المقيمون
البريطانيون - لا يتورعون - عن أن يكونوا - بأنفسهم سماسرة .
أو صيارفة . أو مرابين .

أصبحت الهند - بهذه الصفة التي شرحتها - مدار سياسة
الانكليز الخارجية في الشرق ، وأساس قوتهم البحرية . فكل بلد
يطل على طريق الهند ، أو يتصل به من قريب أو بعيد ، وكل مضيق
أو جزيرة أو امارة ، لها بعض الشأن في حماية طريق الهند . كانوا
يوجهون اليها أنظارهم ، ويستخدمون كل أساليب سياستهم
ودهاثهم ، حتى يحتلوها ، ويربطوا مصيرها بمصير الامبراطورية ،
ويخضعوا سياستها الاقتصادية والعسكرية والخارجية لمصالح
الامبراطورية أيضا .

وعلى هدى هذه السياسة ، التفت الانكليز ، الى منطقة الخليج
العربي ، وسواحل عمان . ثم التفتوا بعد ذلك ، الى العراق وبقية
أجزاء بلاد العرب . وسيطروا على عدن ومضيق باب المندب ، ثم على
مصر والسودان وقنال السويس ، وسواحل افريقيا الشرقية .
فبسطوا نفوذهم في هذه المنطقة الواسعة من العالم . على أساس
خدمة الامبراطورية ، وحماية طرقها . وربطوا السواحل العربية
والافريقية بخيوط قوية مع الهند . ومن المناطق الساحلية شرعوا
يمدون نفوذهم ، الى المناطق الداخلية المجاورة . ويتدخلون في
شؤونها ، ويثيرون المنازعات والحروب بين حكامها . وخاضوا حروبا
طاغية ، محلية وعالمية ، لتأكيد هذه السياسة ، وتحقيق أهدافها
الاقتصادية والعسكرية .

لقد وصل الانكليز في المرحلة الاولى ، الى بلات ايران وبلات
بغداد والقسطنطينية . وأخذوا يلعبون بسياسة هذه الدول . ففي
أوائل القرن السابع عشر ، وصلوا الى بلات الشاه الفارسي عباس
الاول . وبدأ البحارة الانكليز ، يفتدون تباعا الى موانئ الخليج ،

وينشئون المراكز التجارية فيه . وبعد أن أنشأوا مركزهم الاول في
سرات ، انتقلوا الى جاسك سنة ١٦١٦ ، حيث كان قد اتسع نشاط
شركة الهند الشرقية فيها . مستفيدين ، من الامتيازات التي منحها
الشاه لهم ، في مختلف أنحاء الدولة الايرانية .

وكان الانكليز ، قد انتبهوا - قبل ذلك - ، الى أهمية موقع وادي
الرافدين ، ومدى أثره في حماية طرق الشرق التجارية . وخاصة
طريق الفرات ، فألفوا شركة عرفت باسم : « الشركة التركية » تولت
ارسال بعثة خاصة لدراسة طبيعة هذا الطريق ، عام ١٥٨٣ ، كان
من أعضائها ، (ايلدرد ونيوبري وفيتيج) ، فمرت البعثة في
طرابلس الشام ، ثم بغداد ، ثم البصرة ، وأخيرا مرت بهرمز ،
ووصلت الى جاوه

الا أن اهتمام الانكليز الكبير ، بهذه الطريق البرية ، خف طبعاً ،
بعد انتصارهم البحري الساحق ، على الاسطول الاسباني ، في
معركة الارمادا الشهيرة ، في عام (١٥٨٨) وتسلمهم زعامة البحر
فوجهوا اهتمامهم الاول ، الى رأس الرجاء الصالح . ولم يعودوا
يعيرون طريق الفرات البري ، الا أهمية ثانوية .

وظل موقفهم هذا ثابتاً ، حتى برزت المطامع الاستعمارية الالمانية
في الاتجاه الى الشرق والى القسطنطينية وبغداد بصورة خاصة .
وقامت الضجة حول امتياز سكة حديد برلين - بغداد - البصرة . وقد
انتهت بفوز السياسة الانكليزية في المنطقة ، وذلك نتيجة تسوية
مؤقتة ، مع الاستعمار الالمانى .

طلائع المنافسة الاوربية :

كان اليعاربة في ذلك الحين بالذات يشنون حرباً وطنية مقدسة
لتصفية بقايا الاستعمار البرتغالي ، بنجاح متواصل . فتم لهم
الاستيلاء على مراكز البرتغاليين ، في سواحل بلاد العرب ، وفي
السواحل الافريقية من جهة . وتمكنوا من ابعاد النفوذ الايراني
المتحالف مع البرتغاليين ، عن السواحل العربية من جهة ثانية .

ففي سنة (١٦١٦) أنزل العرب خسائر فادحة بالبرتغاليين
في صحار على سواحل عمان . وفي سنة (١٦٢٠) تمكن الشعب
العربي في عمان ، - بقيادة اليعاربة - من دحر البرتغاليين في ميناء

رأس الحيمة (جلفار) • فدق اليعاربة - بعملهم - المسمار الاول ،
في نعش الاستعمار البرتغالي •

وفي الوقت ذاته ، كان قد خف الى المنطقة ، أوريبيون مغامرون
آخرون ، يحملون جنسيات انكليزية وهولندية وفرنسية ، يهدفون
للحصول على المكاسب التي حصل عليها البرتغاليون قبلهم •

وهكذا وقع البرتغاليون بين نارين :
نار العرب ، الذين كانوا يكافحون عن ديارهم وعن ثرواتهم وعن
أسواقهم الطبيعية ، في آسيا وأفريقيا •

وثار المنافسين الغربيين (انكليز وفرنسيين وهولنديين وكرد) على
هذه المنافسة الضاربة ، وأصدر البرتغاليون أمرا ، بمنع الملاحة في
الخليج ، واحتلوا في سنة ١٦١٢ ، بندر عباس ، على الشاطئ
الایرانی •

لم يستفد البرتغاليون من تدابيرهم الواقية • فقد عاجلتهم ضربة
العرب القاصمة • فوهنت قواهم ، وعجزوا عن المقاومة ••
المجدية ••

كان الفرس حلفاء الإيرانيين كما مر معنا • فقد اتفق الفريقان
على تبادل المعونة في البحرين والخليج العربي •• وفي أرض إيران
ذاتها - أبان ثورة مكران - وكانت المصالح الاستعمارية ، والطمع
في الاسلاب والمكاسب ، هي التي تجمع بين الفريقين ، لا المبادئ
ولا القيم •

ولذلك فان الفرس ، حالما أدركوا ، أن البرتغاليين مهزومون لا
محالة ، هبوا للاشتراك ، في نهب الاسلاب منهم ، منتهزين الفرصة
السانحة ، فوضعوا أيديهم على بعض مراكزهم على الساحل الإيراني
وحاصروا مدينة هرمز ، بصورة خاصة •

وكان الانجليز حديثي عهد بالمنطقة •• فقد قدموا اليها قبل عشر
سنوات فقط • ولم يكن لهم في المنطقة بعد ، المكانة التي تؤهلهم
للاستيلاء على نصيب الاسد ، بعد كل خلاف - غاداتهم - ومع ذلك
اغتنموا الفرصة أيضا ، وأدخلوا أنوفهم في القضية ، وشاركوا في
تصفية الاستعمار البرتغالي ، فاشتبك أسطولهم بالأسطول البرتغالي
حول (جاسك) •

وفي عام ١٦٢٢ ، دمر مركز البرتغاليين في هرمز ، من قبل
الانكليز أيضا •

ثم تعاون الاسطولان الانكليزي والهولندي ، على تدمير الاسطول
البرتغالي في عام ١٦٢٥ • فكان من نتيجة تلاحق المصائب
والانكسارات ، في قرى البرتغاليين ، ان انهارت مقاومتهم ••
فانسحبوا من جميع قلاعهم في السواحل غير العربية وتجمعوا على
الساحل العربي ، محصنين مسقط وصحار ورأس الحيمة ، كوسيلة
دفاعية أخيرة لهم في المنطقة •

وهكذا استطاع البرتغاليون أن يبتعدوا عن المنافسين الغربيين ،
وأن يوجهوا كل قواهم لدحر اليعاربة • كي ينطلقوا من النصر الذي
أملوه الى انتصارات أخرى ، في خارج المنطقة العربية •

لقد كانت خطة البرتغاليين في الدفاع مثالية • وكان لو تم لهم
النصر فيها ، لحافظوا على امبراطوريتهم قرنا آخر من الزمن ••
ولكن رياح السياسة ، كانت ضدهم • فقد اختاروا لمعركتهم الاولى
أقوى المناهضين لهم • أي اليعاربة •

كان اليعاربة في عنفوان قوتهم واتحادهم وعزمهم على تطهير
عمان •• لذلك لم يصمد البرتغاليون أمامهم • فانكسروا في جميع
المواقع الكبرى ، التي نشبت ، بينهم وبين عرب عمان •

ففي عام ١٦٤٣ أخرجهم اليعاربة من صحار •
وفي عام ١٦٤٨ وجه اليهم اليعاربة ضربة قاصمة بمحاصرة
مسقط •

وفي عام ١٦٤٩ أعاد اليعاربة الكرة ، وأحكموا حصار المدينة ،
حتى تم لهم النصر النهائي فيها ، فسقطت في عام ١٦٥٠ ، وذلك
على يدي الامام سلطان بن سيف • الذي لم يكتف بهذا النصر
المحلي ، فتعقب البرتغاليين بعد ذلك ، الى سواحل أفريقيا الشرقية •
وهكذا انتهت قصة البرتغاليين •• وزالوا من أمام المنافسين
الاوروبيين وخاصة من أمام الانجليز •

وهكذا أصبح الانجليز أدهى المنافسين • وأكثرهم قوة • فأصبح
أسطولهم الاسطول الغربي الاول في المحيط الهندي •• الامر الذي
ساعد على تكتل القوى المنافسة الاوربية الاخرى وتعاونها على مقاومة
تغلغل النفوذ الانكليزي وتصفيته •

المنافسة الهولندية الفرنسية :

بعد أن زالت أخطار البرتغاليين، حاول الهولنديون والفرنسيون أن يحلوا محل البرتغاليين . وجربوا بناء مراكز تجارية وعسكرية خاصة على أنقاض المراكز البرتغالية ، تقوم باحتكار تجارة المنطقة ، كما كان يفعل البرتغاليون . وكما يفعل الانجليز عمليا . كان الاستعمار الهولندي ، في فورته الاولى . وعنفوان قوته وثرائه . فاستطاع الهولنديون ان يحتكروا تجارة الخليج العربي ، وخاصة تجارة التوابل والبهارات ، لمدة تزيد على ثلاثة أرباع القرن . بين عامي (١٦٠١ - ١٦٨٨) .

وكان من الممكن ، أن يطول عهد احتكارهم مدة أطول من ذلك . لا سيما بعد أن ظهر تفوقهم الفعلي على الانكليز ، في عدة مواقع . الا أن ظهور المنافسة الفرنسية في الميدان الشرقي ، بشكل بارز وخطير . عطل خطط الهولنديين ، وأفسد حساباتهم كافة . فقد انهزموا - في المعارك - أمام الفرنسيين ، واستطاع الاسطول الفرنسي ان يدمر الاسطول الهولندي في عام ١٦٧٦ . فدفعتهم هذه الانكسارات المتوالية ، للبحث عن حلفاء لهم ، فارتموا في أحضان الانكليز عام ١٦٨٨ ، لمواجهة الخطر الفرنسي . فكانت هذه السياسة وبالا على الهولنديين ، اذ ربطت سياستهم ، في ذيل السياسة الانكليزية ، وأخضعت مصالحهم للمصالح البريطانية ، فأصبحت هولندا بمثابة تابع للانكليز في المنطقة .

ومما عزز هذا الاتجاه . وأكد نتائجه ، ان الفرنسيين لم يستطيعوا الصمود طويلا ، أمام المقاومة الانكليزية . فاضمحلت مقامتهم بسرعة . وانتهت تقريبا ، في آخر القرن السابع عشر . وكانت انكسارات فرنسا أمام الانكليز في أوروبا ، العامل الأول في حلول هذه النتائج الخطيرة .

وبزوال الفرنسيين ، من ميدان المنطقة ، واضمحلال خطرهم ، خلا الجو للانكليز . وأتيح لهم أن يقطفوا - دون غيرهم - ثمار النصر . ولم يعد لا لهولندا ولا لفرنسا ، قيمة تذكر في عملية المنافسة .

بعد ان تم الانكليز الفوز على منافسيهم الغربيين ، التفتوا الى سكان المنطقة ، لتصفية مقاومتهم الضاربة ، مستخدمين جميع

الوسائل وكل الامكانيات . من الدهاء الدبلوماسي الى الحرب والتدمير .

فكان الانكليز ، اذا ما صادفوا مقاومة شديدة ، دمروها حالا ، وأفنوا مصادر قوتها . ثم توجهوا الى غيرها . وهكذا .

عودة المنافسة الفرنسية :

ران على المطامع التوسعية في فرنسا جمود طويل ، بسبب الانكسارات التي منيت بها ، في النصف الاخير من القرن السابع عشر والنصف الاول من القرن الثامن عشر . فخفت المنافسة في الشرق ، تبعا لذلك .

ولكن أحلام الفتح والتوسع من جهة ، ونمو الطبقة المتوسطة ، وبروز مصالحها الاقتصادية ، التي تقوم على الاستعمار والاستغلال واحتكار ثروات البلدان المتأخرة ، من الجهة الاخرى ، دفعت بفرنسا ، لتحسين الفرص الجديدة المناسبة ، كي تعود الى الميدان الاستعماري ، فتحقق أحلامها وأحلام ومطامع الطبقة البورجوازية الجديدة النامية فيها .

لقد أتاحت (الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩) ، للطبقة المتوسطة (البورجوازية) في فرنسا ، ان تنطلق من قيودها . وان تبدأ في بناء امبراطورية استعمارية .

فالثورة الفرنسية ، قضت نهائيا ، على بقايا الاقطاع ، والعلاقات الاقطاعية ، في فرنسا . وأتاحت للبورجوازية ، الوصول الى الحكم . ولا سيما بعد ان زالت سيطرة العناصر المتطرفة في الثورة وبرزت القوى المعتدلة ، الممثلة للبورجوازية .

وقد استطاع نابليون الاول - بفتوحاته ، وما بعثه من أحلام المجد والتوسع ، وبإيصاله الى الحكم ممثلي الطبقة المتوسطة - ان يمثل هو - بدوره - آمال هذه الطبقة ، وان يخدم أغراضها ، تحت شعار بعث (مجد فرنسا) . ولم يكن « المجد الفرنسي » المزعوم سوى حلم جديد في بناء امبراطورية استعمارية تنافس الامبراطورية الانكليزية الاستعمارية وتسلبها بعض منهباتها .

لم يكن حلم نابليون - هذا - حلما جديدا ، بل كان تجسيدا عمليا ، للأحلام التي طالما راودت ، كبار تجار فرنسا ، وكبار صناعها ، منذ أوائل القرن الثامن عشر . أي منذ ان بدأت الثورة

الصناعية ، تنتصر في فرنسا ، وتفرض عليها البحث ، عن المواد الأولية ، وعن الاسواق التي تصرف فيها بضائعها الفائضة .

كان من جملة أحلام الفرنسيين ، ان يوسعوا نفوذهم السياسى والاقتصادى ، وان يصلوا به الى بلاد الشرق . وخاصة الى سواحل الخليج العربى وعمان . ولكن المنافسة الانكليزية كانت تقف فى وجوههم كل مرة . وتبدد أحلامهم هباء .

كانت المنافسة ، كثيرا ما تسبب قيام المعارك بين الدولتين ، أو تهدد بوقوع حروب طاحنة فى الوطن وفى المستعمرات . ومع ان الغلبة كانت للنفوذ الانكليزى فى النتيجة . فان منافسة الفرنسيين للنفوذ الانكليزى ، كانت تبلغ أحيانا حد الخطر .

فقد توصل الفرنسيون الى بلاط مسقط ، بسهولة ، وفرضوا أطبائهم على السلاطين . وحصلوا على أفضل أنواع الرعاية منهم ، بل حصلوا - منهم - على نوع من أنواع الاعتراف بالتبعية . وصرح السلاطين وممثلوهم مرارا ، بوجود مصالح مشتركة للطرفين . بل أعلنوا أكثر من مرة ان للفرنسيين ثمة حقوق فى أرض السلطنة . وأفضلية على غيرهم من الاجانب . ومن الامثلة على ذلك :

ان حاكم مسقط أرسل كتابا الى (روزيلي) الفرنسى الذى زار مسقط ، للقيام بعملية مسح للجغرافية المائية ، فى عام (١٧٨٥) يقول له فيه :

« ان بلادى هى بلادكم ، وصادقتنا باقية كما كانت عليه قبلا ، بل انها أقوى مما كانت عليه فى أى وقت » .

وقال روزيلي - اياه - :
« ان أهل مسقط - فيما يبدو - يحبون الفرنسيين ، ويكرهون كبرياء الانكليز وتحكمهم » .

وفى الوقت ذاته . كتب محافظ مسقط ، التابع لسلاطين البوسعيد ، الى الميسو (روسو) القنصل الفرنسى فى بغداد ، يقول :

« لنا بالفرنسيين صلات أوثق من صلاتنا بأى دولة أخرى ، وبضائعنا وبضائعهم كلها واحدة ، وموانينا مشتركة ، والربح والحسارة مشتركة بيننا ، ولا حاجة الى الدخول فى أى تفصيلات ، لان قلوبنا قد تعاهدت على ذلك » .

وكتب حاكم مسقط ، الى القنصل الفرنسى ، فى سنة (١٧٩٠) ، يقول :

« لست تجهل الاوامر التى تصدرها الى موظفينا ، فى ميناء مسقط ، والطريقة التى يعاملون بها مواطنيكم ، الذين ينزلون فى بلادنا ، فميزناهم على جميع الشعوب الاوربية الاخرى » .
ومما لا شك فيه ، ان هذه الامثلة ، كافية للدلالة على مدى تغلغل النفوذ الفرنسى فى بلاط مسقط .

ان هذه الصلات ، لم تضعف الا بعد مقاومة جديفة عنيفة ، من قبل الانكليز . وقد استمرت فترة طويلة من الزمن .

فبعد وفاة (حمد بن سعيد) سنة (١٧٩٢) ، ووصول عمه سلطان بن أحمد الى الحكم . احتفظ سلطان فى الفترة الاولى من حكمه ، بهذه العلاقات الودية مع فرنسا . يقول مايلز :

« على أثر اغتصاب السيد سلطان للحكم ، واصل علاقاته الودية مع فرنسا ، ويبدو انه ظل ، لبضع سنين ، يسترشد فى الشؤون السياسية ، بطبيبه الفرنسى .

ولم يكتف الفرنسيون ، بعلاقاتهم الطيبة بحكام مسقط . بل حاولوا أن يستخدموهم ، وسائطا للاتصال ، بأمرأ الهند الثائرين ، على النفوذ البريطانى .

فقد أعلن (مالارتيك) ، حاكم جزيرة موريشس الفرنسى ، فى ابريل سنة (١٧٩٨) : عن عزمه على التعاون ، مع (تبوصاحب) ، سلطان ميسور فى الهند . وكان من المتوقع ، ان يتم الاتصال بين الجانبين ، عن طريق عرب عمان .

كتب (سميث) ، وكيل شركة الهند فى بوشهر ، يقول :
« ان مسقط ، ستصبح عما قريب ، وكرا للجاسوسية الفرنسية ، على الهند . لان خمسا أو ستا ، من السفن العربية ، تقوم بنقل التجارة ، بين جزيرة موريشس ، وبين مسقط ، وساحل ملبار » .
وأخيرا ، استقرت الحملة الفرنسية فى مصر ، عام ١٧٩٨ . وبرزت أخطار المنافسة الفرنسية ، بشكل واضح . وتجسدت هذه الاخطار ، بشكل عملى ، على مواصلات الامبراطورية ، وخاصة على البحر الاحمر والخليج العربى وسواحل عمان .

ومما لا شك فيه ، ان هدف الحملة ، كان قطع طريق الهند • ومن ثم الوصول الى الهند ، وتصفية النفوذ البريطاني فيها • ولم يكن الامر ، يستقر بنابليون ، حتى بدأ نشاطه المعادي للانكليز ، فى المنطقة • فأخذ يتصل بأمرائها وحكامها ، ويستميلهم الى جانبه ، ويؤلبهم على الانكليز •

كتب نابليون من القاهرة ، الى حاكم مسقط ، يقول :
« أكتب اليكم هذا الكتاب ، لابلغكم ما لا شك فى انكم قد علمتموه وهو وصول الجيش الفرنسى الى مصر • ولما كنتم دائما ، (أصدقاء) لنا • عليكم ان تقتنعوا ، برغبتي فى حماية جميع سفن دولتكم • وعليكم ان تقوموا بارسالها الى السويس ، حيث تجد حماية لتجارتها • »

ان نعمة حماية سفن مسقط ، ورعاية تجارتها والخوف عليها ، كانت الانشودة المحببة ، التى يرددھا الطرفان المتنافسان (انجلترا وفرنسا) ، والتى ما كانت الا أسطورة هزلية ، يراد بها خداع مسقط ، وجرها الى الطوق الاستعماري • واخضاعها للنفوذ الاجنبى المباشر •

فمثلما كان نابليون ، يعزف على هذا النغم ، ويمنى حكام مسقط ، بحماية سفنهم • كان الانكليز يرددون المعزوفة ذاتها • كتب مالكولم عن الفرنسيين :

« ... تلك الامة الخارجة على القانون ، قد تحدث جميع المعاهدات ، واستولت على مصر ... » ثم يقول : « فماذا كان يصبح اذا ، مصير تجارة مسقط المشهورة ، لو ان مرافئ شبه جزيرة الهند ، أقفلت أمام سفن مسقط التجارية ، بأمر القوة المسيطرة • »

« لا يمكن الاجابة على هذا السؤال ، الا بالاعتراف بالحقيقة ، وهى ان رخاء مسقط ، يعتمد على رضا الانجليز • »

ويبدو ان حكام مسقط ، اقتنعوا بهذه الحجة • وأخذوا ينصتون الى نصائح الانكليز • وينزلون عند رغباتهم • فقد عقدوا معهم ، معاهدة سنعود الى شرحها • كانت معظم بنودها تدور ، حول مقاومة النفوذ الفرنسى فى مسقط ، واستئصال شأفته ، والتعهد بعدم السماح للفرنسيين ، باقامة وكالة لهم فى العاصمة ، أو فى

توابعها • مع الوعد ، بطرد جميع الرعايا الفرنسيين ، من خدمة السلطان •

لم يكتف الانكليز ، بمقاومة الفرنسيين فى بلاط مسقط • ولدى سلاطينها ، بل أثاروا مخاوف الفرس ، من النفوذ الفرنسى ، وأقنعوا الشاه ، بارسال ٢٠٠٠ جندي ، لحراسة سواحل ايران على الخليج • ولكن تحطيم الاسطول الفرنسى ، فى معركة (أبى قير) حسم المسألة • وبدد أحلام نابليون وفرنسا - آنثذ - ، فهبطت المنافسة ، من مستوى المعارك والحروب ، الى مستوى المماحكات الدبلوماسية • وتضاءل الخطر الفرنسى ، ولم يعد جديا كما كان •

المطامع الايرانية ونتائجها :

ان قصة المنافسة الاستعمارية على بلاد العرب ، لم تكن ذات جانب واحد ، أو جوانب قليلة محدودة • بل كانت جوانبها كثيرة ومتنوعة ، وقد ترتب عليها ، نتائج محلية وعالمية ، ذات خطورة وأثر • يستغرق شرحها آلاف الصفحات السود الملوخة بالدم ، بالنسبة لتاريخ الاستعمار • والمليئة بالكفاح الانسانى البطولى ، ضد الظلم والطمع والنهب ، بالنسبة للشعب العربى فى المنطقة • لقد ساهم الشعب العربى - طوال هذه الفترة - مساهمة ايجابية انسانية ، ضد كل أنواع الطغيان الغربى والمحلية • أى التى كان يمثلها الاستعمار الانكليزى والفرنسى والهولندى من جهة ، وضد المطامع التى كان يحملها الفرس والأتراك العثمانيون ، من الجهة الثانية •

كان دور العرب ، دور الكفاح الوطنى الايجابى ، لحماية سلامة منطقتهم ، ولتثبيت استقلالها ، ولطرد العدو من النقاط التى تركز فيها • ولحماية اقتصادياتها من النهب • فى حين كانت ، سياسة الجهات الاخرى • وخاصة الفرس والأتراك • سلبية يقودها الطمع والطغيان والظلم ، وتمليها روح العدوان والنهب •

واذا كان قد كتب النصر فيها للانكليز ، على جميع القوى الغربية • فان العرب لم يستسلموا قط • وما معارك عمان الحالية ، الا الصفحات الاخيرة لتلك المأسى • والتى لا بد ان تنتهى بانتصار الشعب العربى ، وتصفية الاستعمار من المنطقة نهائيا •

ولاً بد هنا من القول : بأن الدور الذي لعبه الفرس ، كان أسوأ الادوار التي لعبها حكام منطقة ما ، في سواحل الخليج العربي .
لقد تعاون الفرس مع جميع الجهات الطامعة ، ضد مصلحة المنطقة .
لعلهم يصلون - من وراء ذلك - الى الاستيلاء عليها ، أو اقتسامها مع العدو الخارجي . فلم تقدمهم السياسة العدوانية في شيء ، بل جرت الوبال عليهم ، وعلى جيرانهم .

كان الايرانيون - في الحقيقة - أول من فتح أبواب المنطقة للنفوذ الاجنبى ، وخاصة للنفوذ الانكليزى . طنا منهم ، انهم يستطيعون استخدام الاسطول الانكليزى ، في عملية اخضاع الشعب العربى ، الذى لم تتوقف مقاومته قط . أملين ، ان يخرج لهم الانجليز ، الكسنتاء من النار . فيربحون القضية ، دون ان يبذلوا جهداً ما .
وافق الانكليز على هذه الصفقة بسرور . وارتاحوا للحلف غير المقدس ، الذى أقاموه مع شاه ايران . لا حبا في ايران . ولا خدمة لها . فالاستعمار لا يخدم الا نفسه . ولا يعمل الا وفق مصالحه القريبة أو المصالح المرتقبة .

وهكذا لم يجن الايرانيون ، من سياستهم ، ومن المعارك الطاحنة التى خاضوها ، في سواحل عمان . وفى البحرين . وفى شط العرب وعربستان ، غير الخذلان والفشل .

ففى عام ١٦١٥ ، حصلت شركة الهند الشرقية ، على فرمان من الشاه عباس الاول ، يأمر فيه جميع موظفى الموانئ الفارسية ، بمساعدة التجار الانكليز - ثم أصدر الشاه ، فى سنة (١٦١٧) ، أمراً آخر ، يمنح للانكليز فيه ، حق احتكار تجارة الحرير .

ان أوامر الشاه عباس الاول ، وفرماناته ، هى التى مكنت الانجليز - لأول مرة - من غزو السواحل . فى زمن كانت المنافسة الاستعمارية فيه ، على أشدها . وفى زمن كان الانكليز - أنفسهم - فيه . وافدين محدثين ، لا حول لهم ولا قوة .

ان النفوذ الانكليزى الاول ، كان مقتصرًا على السواحل الايرانية . ولكن بما ان سكان السواحل الايرانية ، كانوا عربا ، يرتبطون بالسواحل العربية المقابلة . بروابط كثيرة ومتينة . فقد وجد الانكليز صعوبة كبيرة ، فى اخضاعهم . رغم فرمانات الشاه ، ورغم أوامره . وجيوشه .

وظلت السواحل العربية ، بعيدة عن هذا النفوذ ، زمنا أطول

نسيا . والسبب فى ذلك ، يعود الى مقاومة أئمة عمان . والى مقاومة القبائل العربية ، المعروفة بقوة الشكيمة . والتى كانت - الى هذا وذاك - تملك عددا من الاساطيل التجارية ، والسفن الحربية ، القادرة على عرقلة ، مواصلات الانكليز ، وتهديد طرقهم البحرية . ولكن ، ما ان طرد البرتغاليون - نهائيا - من السواحل العربية . وقامت امبراطورية عمان البحرية القوية ، فى القرن السابع عشر ، حتى أخذ الانكليز ، ينظرون اليها بعيون ملؤها الشره والحقد . ولكنهم بدأوا - كعادتهم - يضعون الخطط البطيئة ، والمضمونة النتائج ، لتحطيمها . وكان أبرز ما يميز هذه الخطط المدروسة ، الحذر والتأنى ، واغتنام الفرص المناسبة .

ان هذه الاسباب ، هى التى تفسر بطء امتداد النفوذ الانكليزى وتعثره ، فى المرحلة الاولى . فقد بدأ نفوذهم يتسرب بصورة بطيئة وثيدة . بل ومتعثرة أحيانا . حتى ان شركة الهند الشرقية ، أبت التلاحم المباشر ، مع القبائل العربية ، مدة طويلة ، ولا أدل على ذلك ، من انها رفضت طلب الشاه عباس ، حينما رغب فى مساعدتها له ، عند غزوه لسواحل عمان . متجنبين الاشتباك ، بالقبائل العربية . ولم تعدل شركة الهند سياستها هذه . وتقبل بسلوك سياسة الاصطدام والتدخل ، فى شئون المنطقة ، الا بعد قرن من الزمن تقريبا .

كان الانكليز يهدفون ، من سلوكهم الحذر المتأنى ، الى تحقيق غرضين :

أولاً : عدم اثارة القبائل العربية ضدهم . فى مرحلة ، لم يكونوا فيها قد تثبتوا لمركزهم ، أو أمنوا على مواطئ أقدامهم .

ثانياً : لرغبتهم ، فى جنى الارباح كلها ، دون مشاركة أحد لهم فيها . وهذا ما دفعهم ، الى عدم تشجيع الشاه عباس ، على الاسترسال فى مطامعه التوسعية .

كانت بريطانيا - والحق يقال - تعمل لصالحها ، لا لصالحه . وتحفظ بالسواحل العربية لنفسها ، لا لتقدمها هدية هينة ، للشاه عباس أو لغيره .

وهكذا تبذرت مطامع الفرس هباء ، ولم يجنوا من تعاونهم مع الانكليز ، وفتح أبواب ايران لهم ، غير قبض الريح ، والوبال والشؤم .

انقشاع الغمة عن عمان :

ان عمق المأساة التي آلت بعمان .. وفداحة الخسائر .. والنتائج التي تخيل الشعب حدوثها لو استمرت المحنة ، دفعت بكل فرد ، للعودة الى نفسه ، ومحاسبتها على سلوكها . فتناسى الناس خلافاتهم وتخلوا عن حزازاتهم وانقساماتهم ، وصهرتهم التجربة فجردتهم من دوافع الانانية والتعصب الذميمة . وتآخت عمان .. وتوحشت أهدافها ، وذابت اتجاهاتها الخاصة وأجمعت على بذل كل مرتخص وغال في سبيل طرد الفرس من ربوع الوطن .

حتى ان زعماء عمان ورجال الحل والعقد فيها ، تنازلوا عن بعض القيم التي ما كانوا ليتنازلوا عنها ، لولا ضغط الظروف ، وقبلوا ببعض الشر ، تفاديا للشر الاكبر . فقرروا الطلب من الامام الشرعي أن يضحي ، وأن يتنازل عن الامامة ، رغم وضوح حقه فيها ، ليتولاها سيف بن سلطان ، تدعيما للوحدة الوطنية ولقطع الطريق على الغزو الفارسي ، ولتوحيد جميع قوى المجتمع لطرده من الوطن . فقبل الامام الشرعي الذي يتمتع بالوعي الكافي والعقل الراجح ، وتنازل عن منصب الامامة بنفس رضية ، وأعيد تنصيب سيف فعلا .

ولكن سيف لم يكن من مستوى هذا المنصب ، ولا ممن يقدرון أمانة الشعب ، فلم يصدق العهد الذي قطعه على نفسه ، ولم يبذل ما يستطيعه لرد النرس وطردهم من البلاد على خير وجه ، رغم أنه كان زعيما مدنيا ، لا دينيا . وكان يغلب عليه الطابع العسكري .

لقد أحسن أحمد بن سعيد تدبير شؤون الدولة ، وسن القوانين التجارية لها . وقوى الاسطول ، وأنشأ الجيش البري وأبقاه تحت اشرافه المباشر . وقضى على الفتن الداخلية نهائيا ، وأزال آثار الفرقة والتعصب . وحمل الامبراطورية العمانية - فترة أخرى - من التفكك وتتبّع أعداء عمان في البحار ، وأراح الناس واستراح .

وعندما احتل الفرس البصرة في عام (١٧٥٦م / ١١٧٠هـ) تتبع آثارهم الى هناك ، ولحق بهم الى البصرة بأسطول عماني قوى ، يحمل عشرة الاف مقاتل . فهزمهم وطرد فلولهم من البصرة .

وكان من جملة أسطوله ، طراد اسمه « البرحماني » حطم السلسلة الحديدية التي نصبها الايرانيون في شط العرب ، ووصلوا بها الضفتين لمنع أسطول عمان من التغلغل في شط العرب ، والوصول الى البصرة .

الفصل الحادي عشر

أثر التدخل الاجنبي في انقسام عمان

غمامة تظلل عمان :

في أواخر القرن السابع عشر ، بدأت بوادر فتنة عمياء ، في صفوف الشعب العربي في عمان .

أثرت النزاعات القبلية القديمة من قبرها . ونفض عنها غبار الزمن . واشتدت العصبية الجاهلية بين قبائل (اليمن وقبائل عدنان) بعد أن أخذ كل فريق منهما اسما جديدا . فأصبح يطلق على عرب الجنوب (الهناوية) وعلى عرب الشمال (الغافرية) .

ولم تقف العصبية عند حد الجدل والخلافات البسيطة ، بل تعدت ذلك الى الفتن والاضطرابات والحروب الداخلية .

ففي القسم الاول من القرن الثامن عشر ، شهدت عمان معارك قبلية ، ونزاعات مرسفة بين أبناء الشعب الواحد ، أوهنت قوى الامامة ، وساعدت على تفتيت قوى الشعب ، فتفتحت الثغرات الواسعة ، أما العدو الاجنبي المتربص ، على حدود الوطن .

وكانت النتيجة الاولى لهذه الفتن ، أن تفككت الاسرة العربية الحاكمة ، وتقلص نفوذها ، وبدأت امبراطوريتها تذوى وتتجزأ .

وبلغت الفوضى حدا من الخطر ، دفع بأحد حكام عمان ، وهو سيف ابن سلطان ، للاستعانة بالفرس على بنى قومه ، فانتهاز الايرانيون الفرصة وسارعوا الى نجدة سيف بجيش كبير ، تقدم الى منطقة الظاهرة من عمان . وسار بفرقة الحائن وجماعته لمحاربة الامام الشرعي المؤيد من الشعب (بلعرب) فغلبوه واحتلوا معظم مدن عمان وخاصة العاصمة . وأفحشوا في القتل والتدمير ، ولم يرحموا طفلا أو امرأة أو شيخا عاجزا مما أثار حفيظة الشعب العربي وغضبه .

وقد بلغت مظالم الفرس ، حدا من القسوة دفعت بسيف الجزع فاضطر للانزواء والراجع ، وتفضيل خصومه من العرب على أصدقائه الفرس الذين يحملون عداوة وحقدًا على شعبه .

وحينما أوقف لصوص البحر ، في سواحل الملبار في الهند ، المؤونة عن عمان ، وحالوا دون وصولها ، أرسل أحمد بن سعيد طراده هذا الى جنوب الهند (مانغالور) للسؤال عن السبب في تأخير المؤونة . فاستقبل (بتوصاحب) مندوب امام عمان بكل حفاوة ، وأخبره أن السبب هم لصوص البحر على ساحل الملبار . فقصدهم الطراد الى ديارهم ، في تلك السواحل ، فقصف معقلهم وقتل زعيمهم ثم عاد .

خيانة سلاطين البوسعيد :

وعودة النفوذ الانكليزي الى مسقط :

مات أحمد بن سعيد بعد أن حكم ٣٤ عاما . وأعقبه ابنه سعيد بن أحمد ، الذي قيل انه انتخب اماما بعد أبيه وقيل أنه لم ينتخب ، والمؤرخ السالمى يخامره الشك في انتخابه . وسعيد - كل على حال - لم يكن كفؤا للمنصب ، ولم يكن خلفاؤه من البوسعيد أفضل منه . ومن المؤكد أنهم لم يحصلوا على لقب الامامة بعده . وقد تولوا حكم مسقط وتوابعها بالارث ، فنقضوا - بذلك - شرطا أساسيا من شروط الامامة ، ألا وهو الانتخاب . بل قيل انه كان على وفاق معهم ، في الخفاء . وقبض الله للشعب العربى في عمان ، فرصة الخلاص من هذه المحنة .

فظهر من صفوف الشعب ، بطل وطنى عصامى ، هو أحمد بن سعيد ، الذى مر ذكره . فقاد الشعب الى النصر . وهدهاه الى طريق الخلاص .

كانت مواهب أحمد بن سعيد ، قد اكتشفت قبل الآن . فعرف بالشجاعة والحزم وامسالة رأى . فقادته هذه المواهب النادرة ، والصفات الفريدة الى منصب ولاية صحار ، من قبل سيف . فساسها سياسة حكيمة عادة أكسبته حب واحترام شعبها ، فمكنه ذلك من تطهيرها من نفوذ العدو ، حليف ولى نعمته سيف .

لم يتعصب ضد العرب ، حتى من كان منهم من أعداء سيف ومناوئيه بل وجه همه لمقاومة النفوذ الفارسى . وأخلص النية في محاربته . ولم يكتف بتطهير صحار منهم ، بل لاحقهم الى المعازل الاخرى في عمان . وكان ساحل عمان كله فى أيديهم .

لقد عبر أحمد بن سعيد عن أمانى الشعب العربى العماني . وجسد أحلامه فى أعمال بطولية خالدة ، واستخدم الذكاء والحيلة الى جانب السيف . وتسلم الحصون منهم بحرب وبدون حرب ، فالتف الشعب العربى فى عمان حوله . وأولاه ثقته المطلقة . وأمن فى ظل رايته المظفرة على أمانيه فلم يحاسبه .

لقد استخدم أحمد بن سعيد هذه الثقة استخداما جيدا ، ولم يخونها قط . فلم يغمد السيف ألا بعد أن طهر البلاد من الفتن ، وقتل من الفرس من قتل ، وطارد الباقين ، حتى انتقلوا الى الشاطئ الايرانى .

وفى هذه الغمرة المفرحة من الانتصارات ، توفى الامام الشرعى ، متأثرا من جراحه التى أصابته فى معاركه مع الفرس . وضاعت السبل فى وجه الامام الزائف « سيف » فمات بعد أيام كمدا .

وبقى أحمد بن سعيد . الزعيم الوطنى الكفء . فى تلك المرحلة . واجتمع الرؤساء اعيان البلاد ورجال الدين فى مدينة الرستاق ، فبايعوه بالامامة ، مجمعين على ذلك متسابقين ، فى سنة (١١٥٤ هـ ١٧٤١ م) ، فقام بأجبات الامامة .

ونظرا لضعف سعيد بن أحمد فقد ترك الحكم لولده (حمد) . فأخذ حمد يتصرف فى شؤون البلاد على هواه حتى توفى عام ١٧٩٢ . وفى عهد حمد تم انتقال سلاطين البوسعيد من العاصمة الرستاق فى الداخل الى مدينة مسقط على الساحل . وهكذا انفصل سلاطين البوسعيد - باختيارهم - عن الشعب ، وربطوا مصيرهم بمصير الامبراطورية العمانية فيما وراء البحار . وبأحداث الساحل ، حيث كان يتطاحن الاجانب وحيث كانت المنافسة الاستعمارية تقوم على قدم وساق

قال لوريمر ، يصف آثار هذه الخطوة :

« لقد أخرجت حكام عمان عن موقف كانوا يستطيعون فيه أن يحتفظوا بمنزلتهم ، بوسائل القدرة العسكرية والسياسية ، ووضعت فى متناولهم دخلا مضمونا سهلا من الرسوم الجمركية ، ومكنتهم من أن يحتفظوا بسلطة شكلية ، بالرشوة وحدها . وعرضتهم - بعد ذلك - لتأثير حضارة أجنبية أبعدتهم عن قبائلهم فى الداخل ، وقللت

من شعبيتهم بين رعاياهم • ولو بقيت العاصمة في الرستاق ، لكان من الممكن أن تتمتع عمان ، في القرن التالي بمزايا حكومة أكثر استقامة ونشاطا ، ولكن يمكن أن يكون الفساد الخلقى للأسرة الحاكمة أقل سرعة » •

ومن المؤسف أن يكون شعور هؤلاء الحكام لا يختلف عن شعور الأجانب فيما يتعلق بالموضوع • فقد كانوا يعرفون هذه النتائج ويعدون أنفسهم للاستفادة منها •

لقد كتب أحد أبناء الامام احمد بن سعيد الى البحار الفرنسي دستان • وكان دستان يتجول في الخليج العربي • فجاء في كتابه : « اننى صديق للفرنسيين • • اننى أعد نفسى ابنا للفرنسيين • • اننى أعرض عليك مينائى وكل ما أملك من مال وماشية • »

كان من الممكن أن يسكت الأهالى عن حكم سلاطين البوسعيد ، احتراماً لماضى أبيهم احمد بن سعيد وسابقتها الطيبة • الا أن حكام مسقط - هؤلاء - انغمسوا في حمأة الفساد وانساقوا وراء مصالحهم الذاتية • واهتموا بمضاعفة ثرواتهم على حساب الشعب • فأحدثوا البدع واحتكروا السلع ، مما سبب نشوب الفتن الداخلية وكثرة الطامعين في الحكم • فمن الناس من بايع سعيد بن احمد • ومنهم من بايع قيسا بن احمد • لئلا كان يحكم صحار • وآخرون فضلوا أخاه هلالا • وغيرهم التفتوا حول حمد بن سعيد بدلا عن أبيه • فضعفت هيبة الحكم ، وهانت الدولة في عيون الناس ، وكثرت الانتفاضات عليها ، وصار بعض الحكام يقاتل البعض الآخر • وبدلا من أن يرجع حكام البوسعيد الى قواعد العدالة ، ويحموا مصالح الشعب ويحتموا بحماه ، التفتوا الى الأجانب • • يستملكون منه القوة والعون ، وصرفوا همهم الى استغلال خبرات الامبراطورية لسطد حاجاتهم المادية ، وأهملوا عمان • •

وهكذا لم يقدر حكام مسقط الخطر الحقيقي الكامن وراء تكالب الأوروبيين للوصول الى عمان • • وبسط نفوذهم السياسى والعسكرى عن هذه الطريق - على كل بلاد العرب • • مفضلين أن يعيشوا فى حماية الأجانب على أن يعيشوا فى حماية الشعب • • وبسبب أن حكمهم كان مكروها من الشعب ومحتقرا • • فان نفوذهم لم يتعد بعض السواحل والسهول المرتبطة بها كالباطنة •

وعلى البلاد التابعة لحكومة مسقط فيما وراء البحار • أما عمان الداخلية ، والسواحل الشمالية الغربية ومنطقة الظاهرة وحتى بعض مناطق السواحل الشرقية والجنوبية ، فكانت خارجة عن سلطانتهم •

وكنتيجة لازديان ارتباط حكام مسقط بالأجانب ، أخذ أئمة عمان ينكمشون فى الداخل • خوفا من امتداد الشر الاستعمارى الى بلادهم ولا ينكر أحد أن سلاطين البوسعيد ، استطاعوا أن يحققوا بعض الانتصارات الخارجية لمسقط • فقد احتل سلطان بن احمد مثلا بعض الاجزاء من سواحل مكران : جوادر ، وشهباز ، وقشم ، وهرمز • • فضمها الى أملاك عمان الامبراطورية • ثم أتبعها ب (بندر عباس) وملحقاتها • ووطد أقدامه فى زنجبار وممباسا وسواحل أفريقييا الشرقية •

ولكنهم اعترفوا - فى مقابل ذلك - بتبعيتهم المطلقة للأجانبى ، بصورة تدريجية • كما أخذوا يفقدون ذات الاملاك التى كسبوها ، مع غيرها من الاملاك السابقة بعد فترة قصيرة من الزمن • ولم يبق فى أيديهم سوى زنجبار التى يحكمها فرع آخر من عائلة البوسعيد تحت اشراف انكلترا وبموافقتها •

بعد موت حمد بن سعيد بقليل اغتصب عمه سلطان بن احمد السلطنة وظل يحكم مسقط حتى عام ١٨٠٤ حيث قتل • وحاول بدر بن سيف من البوسعيد الاستئثار بالحكم فى مسقط ، ولكنه أغتيل بعد سنتين من قبل سعيد بن سلطان • وفى عام ١٨٠٦ تولى سعيد بن سلطان الحكم فى مسقط • فكان وجهها جديدا فى العائلة • • دام حكمه أكثر من خمسين عاما • • واعتمد خلال هذه الفترة الطويلة اعتمادا كليا على مساعدة الانكليز • ووقف الى جانبهم فى كل مشكلة تعرضوا لها • ووقفوا الى جانبه فى كل مشكلة تعرض لها أيضا • •

وبعد وفاته انقسمت حكومة مسقط الى حكومتين احدهما فى مسقط تولاها ابنه نوبنى والثانية فى زنجبار تولاها ابنه الآخر ماجد وفى عهد توينى وماجد • • كان انحدار مسقط قد بلغ حدا لا يمكن تلافيه • • وكان الجور قد استفحل • فانفصلت معظم عمان • • وقامت فيها سلطات محلية شبيه مستقلة تمهيدا لقيام أمامة عزان بن قيس •

عن وضع هذه الاقليات المخدوعة ، في خطوط النار الاولى . . يتصور
الاذى بصلورها ، ويجعلون منها صمام امن ، يخففون به ضغط الحركة
الوطنية كلما اشتد ضرامها . والبحرين - اليوم - خير مثال لهذه
الفلسفة الغاشمة .

سابعا - اثاره المطامع الاجنبية مع التلويح بشبحها :

اثارت بريطانيا لعاب بعض الدول المجاورة ، الطامعة باحتلال
بعض أجزاء من الوطن العربي ، في الخليج ، عمان مثلا .

كان دور بريطانيا : استخدام الدول المجاورة لاختضاع الشعب
العربي . فشجعت تلك المطامع وعقدت المحادثات العسكرية
والسياسية مع الاتراك والاييرانيين . بل وساعدتهم عمليا في معاركهم
ضد القبائل العربية ، في ظروف ومناسبات تاريخية كثيرة و
ذكرها في الفصول السابقة . فاثارت المخاوف في قلوب الحكام
الصغار الذين أقامتهم به (المزق الجغرافية) التي أوجدتها على
السواحل العربية .

لقد أشعرت أجراءها من أمراء وشيوخ ومتنفذين في مسقط
والسواحل المهادنة وفي غيرها من البلاد المحكومة على أمرها ، بالخطر
الاجنبى المدهم . وأوهمتهم أنهم ضعاف أمام الخطر الاكيد . . و
لا ملجأ لهم غيرها . . وانهم زائلون - لا محالة - ان لم يتحولوا إلى
خدم طيعين لها . ومنفذين لرغباتها .

ولكى لا يفلت هؤلاء الاجراء من قبضتها قيدت أعناقهم بأغلال
المعاهدات والاتفاقيات وتعديلاتها وملاحقها . .

وأفقرتهم وقطعت موارد رزقهم وأجرت عليهم أعطياتها . وحولتهم
- بهذه السياسة - ولا سيما سياسة اثاره المطامع الاجنبية والتخوين
بها . من أمراء مستقلين وحكام محترمين الى مرتزقة وحراس للنفوس
البريطاني .

ثامنا - سياسة الحجر السياسى وعزل المناطق العربية عن وطنها الكبير :

حاولت بريطانيا بجهد ونشاط مستمرين الحجر على مستعمراتها
ومنع اتصالها بالخارج الا عن طريقها . وعزلتها عن العالم العربي

- وطنها الكبير - عزلا تاما ، وأحاطتها بسيياج من الاساطيل والمعاهدات
وحاصرت اقتصادياتها وأخضعت صادراتها ووارداتها للمصالح
الاستعمارية الاساسية . فانفصلت المنطقة لزمان طويل عن أحداث
العالم العربي . . بل وحتى عن أحداث العالم كله . فلما هبت الحركة
الوطنية فيها . . كانت حركة منفصلة أيضا عن الحركات الوطنية
العارمة في بلاد العرب وعن الحركات التحررية الاخرى في العالم .
وعن الوثبات الوطنية الكبرى والانتفاضات الاجتماعية التي حققها
العرب في كل مكان . وكان من نتيجة هذا الحجر ، والعزلة المقصودين
أن العالم العربي - بدوره - كاد ينسى وجود هذه المنطقة ، ويجهل
حتى الامور البديهية البسيطة فيها .

ولولا أن شعب عمان العربي الباسل قد ثار على هذه السياسة
الماكرة وحطم قيودها في منطقته المجاهدة ، لظلت المنطقة العربية
في الجنوب الشرقى من وطننا مجهولة مهملة .

ان عزل الاستعمار الاجنبى لعمان وبلدان سواحل الخليج لم يكن
في صالح شعبيها طبعاً ولا في صالح الشعب العربي الكبير على الاطلاق
.. بل كان على النقيض من ذلك ، عاملاً أساسياً في تدهور أحوال
البلاد وتأخرها . وهذا هو ما أراده المستعمرون الانكليز .

خاطب اللورد كرزون رجال العشائر في الشارقة عام ١٩٠٣ فقال:
« ان سياسة الحكومة البريطانية - فيما يختص بهذه المنطقة -
تقوم على أساس المحافظة على الاوضاع كما هي ، لأجل غير مسمى »
وهذا هو ما فعلته بريطانيا تماما . فانها حافظت على العزلة والجهل
والمرض والفوضى والفتن والتأخر والفقر والتدخل الاجنبى البغيض
الى أجل غير مسمى .

كانت هذه السياسة الاستعمارية مرنة . . متطورة . . كما سبق
وذكرنا . . ولكن مرونتها وتطورها لم يستخدما قط لتحقيق أية
مصلحة للشعب العربي . . بل لتسهيل انسجام المنطقة مع تطور
المصالح الانكليزية ولحماية الامبراطورية الاستعمارية في الهند . .
ولحسن حراسة طرق مواصلاتها . وأخيراً لتأييد الاحتلال والنفوذ
الانكليزيين فيها . وخلق المصالح الجديدة التي تبرر هذه السياسة
وابتكارها .

فان بريطانيا ، تجنببت - بدورها - الاصطدام به ، وأهملت شؤونه الى حد ما . موفرة على نفسها الخسائر المؤكدة التى لا منفعة لها من ورائها .

كيف تأكد استقلال عمان الداخلية :

ان ما ذكرناه فى الفقرة السابقة لا يعنى ان بريطانيا قد أهملت عمان اهمالا تاما ، وتركت شؤونها لاهلها . بل نجدها - رغم تجنبها الاصطدام بالعمانيين - ما تنفك تدس الدسائس ضدهم . وتساند أعداءهم . وتعرقل مصالحهم فى المناطق الساحلية التى تحتلها . بل لقد وقفت انكلترا - بكل صراحة وقحة - ضد بعث الامامة . . . أو ضد الائمة المنتخبين من شعب عمان . وقد وقفت جنود انكلترا - كما رأينا - دون احتلال الشيوخ أو الائمة لمسقط ومطرح مستخدمة أسطولها وقواتها المسلحة .

فقد حاول عزان بن قيس توحيد عمان الداخلية والساحلية . وتحرير الثانية من النفوذ الانكليزى . فلما نجح فى مسعاه . أثار انكلترا ضده كل طامع وأجير حتى استشهد بنتيجة الدسائس والتدخل الانكليزيين ، بينما كان يدافع عن مطرح . وهكذا كان لانكلترا الضلع الاكبر فى سقوط الامامة - آنذاك .

ومنذ سقوط الامامة باستشهاد الامام الشجاع عزان بن قيس . . وحتى عام (١٩١٣) حاول شعب عمان بعث الامامة مرارا فلم يفلح بسبب الفرقة والنزاع الداخلى والدسائس التى كانت تشتت بتأثير الانكليز وصنيعتهم سلطان مسقط .

الا أن العمانيين رغم دسائس الانكليز والسلطان ورغم تدخل الجيش والاسطول الانكليزيين السافر ، كانوا يحمون استقلال عمان الداخلية ، ويحولون دون أى تدخل فى شؤونها . وقد أكدت جميع الوثائق المعتبرة - بما فى ذلك الوثائق الانكليزية - هذه الحقيقة الدامغة . ألا وهى استقلال وسيادة عمان الداخلية .

جاء فى كتاب المعهد الملكى البريطانى فى الشرق الاوسط ، وفى الفصل المخصص لدراسة أوضاع مسقط وعمان ما يلى :

» . . . فى الحقيقة أنه عند نهاية القرن التاسع عشر لم يتجاوز نفوذ سلاطين مسقط المناطق الساحلية وطفار ، الى قبائل داخلية

الفصل السابع عشر

استقلال عمان الداخلية

بين سلطنة مسقط وامامة عمان :

منذ أن تخلى سلاطين مسقط عن الامامة والتفتوا الى شؤون التجارة وجمع المال ، وقصروا نشاطهم على الساحل والشريط الساحلى الضيق (الباطنة) بدأ الأمراء والقادة ورجال الدين فى عمان الداخلية يفقدون ثقتهم بهؤلاء السلاطين تدريجيا ، حتى نفضوا أيديهم من انصلاحيهم . ثم نبذوهم واستقلوا فى عمان الداخلية عنهم

وكان كلما مضى الزمن أشتدت الفرقة واتسعت الشقة بين عمان الداخلية ومسقط .

يساعد على التباعد والفرقة انصياع سلاطين مسقط للتوجيهات الاستعمارية الانكليزية . ثم خنوعهم لها بدون قيد ولا شرط .

ونظراً لان المصالح الانكليزية كانت - طوال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وأوائل القرن العشرين - ترتبط ارتباطا جذريا وثيقا ، بسلامة طريق الهند . ونظرا للاشراف المباشر الذى فرضه الانكليز على السواحل المطلة على هذه الطريق ، ومنها السواحل العربية . ونظرا للمقاومة الباسلة التى أبداها عرب عمان ضد تغلغل نفوذهم .

فقد انحصر النفوذ الانكليزى - بصورة عامة - على السواحل ، ولم يتغلغل الى الداخل . بل اضطر لاهمال عمان الداخلية وساعد على استمرار هذا الاهمال زمنا طويلا ، انه لم يكن للانكليز فى عمان الداخلية - آنذاك - ثمة مصالح جدية عاجلة . ولا شك أنه كان لحرص عمان الشديد على حماية استقلالها ، والابتعاد عن الغرب ما أمكن ، والتحفظ الشديد عند اقامة العلاقات معه ، الاثر الاول فى ذلك .

ونظرا لقوة شعب عمان الداخلية ، وللبسالة التى اتصف بها .

عمان • وفي عام ١٩١٣ اجتمعت القبائل وانتخبت لها اماما كان خليفته عام ١٩٢٠ الامام محمد بن عبد الله الخليلي ، وهو في الواقع صاحب السلطان على القبائل التي تعيش في منطقة تمتد نحو مائتي ميل الى الشمال الغربي والجنوب الشرقي من مقر امامته نزوى ، الواقعة الى الجنوب من الجبل الاخضر . فهذه القبائل البدوية الداخلية تدين له بالوفاء »

والحقيقة التي لا مرأى فيها ، انه : حالما استطاع الشعب العربي في عمان أن يقضى على أسباب الفرقة والنزاع وأن يوقف الدسائس الاجنبية عند حدها • تم له النصر الذي يحلم به ألا وهو بعث الامامة • فأجمع الشعب وقادته على انتخاب امام • • وأقام حول الامامة سياجا من التضحيات والجهاد المتواصل حتى أبعد كل خطر عنها • من عام ١٩١٣ حتى عام ١٩٥٥ • مبددا - بنصره هذا - من حولها جميع الغيوم الدائنة والمطامع الاثمة التي كانت تراود الانكليز وصنائعهم •

بعث الامامة وتوحيد عمان :

كان أخوف ما يخافه سلاطين مسقط وأسيادهم الانكليز ، أن تتحد قبائل الداخل وأن تتقوى عمان فتتحرر • لذلك كان أي تقارب بين قبائل عمان الكبرى ، وخاصة بين الهناوية والغافرية ، يشكل خطرا داهما يقتضيهم وقفه •

يضاف الى ما تقدم ان تهريب الاسلحة الى عمان الداخلية كان يقض مضاجع الانكليز • فكانوا يعملون كل شيء لوقفه أو تخفيفه باذلين في ذلك الجهود المادية والمعنوية •

ورغم أن سلاح التفرقة وتمزيق الصفوف كان سلاحا انكليزيا ماضيا لزمان طويل • • الا أن وعي الشعب العربي في عمان فضحه وكشف عن خفايا السياسة الانكليزية • فبادر الى ازالة أسباب الفرقة من صفوفه ، وتصفية الخلافات المصطنعة ، القائمة بين القبائل ، وتوحيد الجهود من أجل غاية سامية هي بعث الامامة • وتوحيد عمان وطرده الاجنبي منها •

وقد تكللت جهود العمانيين بالنجاح وبعثت الامامة في شهر جمادى الاول من عام ١٣٣١ هـ (١٩١٣ م) • وانتخب (سالم بن

راشد الخروصي) اماما • وهو أحد أفراد قبيلة شهيرة انتخب منها أئمة كثيرون في القديم •

وكان تحقيق الاتحاد بين قبائل الغافرية والهنارية (اليمانية والعدنانية) من أهم عوامل هذا النجاح ، فتحقق بذلك لعمان المنعة والقوة • وتمت حماية استقلالها عن هذه السبيل •

حرب عمان الظافرة وآثارها :

كانت المصالحة العامة ، وحلول روح اللفة والتعاون والفداء بين مختلف فئات الشعب العربي في عمان وقبائله ، عنوان المرحلة الجديدة من تاريخ البلاد ، فمنذ عام ١٩١٣ وحتى اليوم وهذه اللفة والتعاون والمنعة تشتد وتقوى يوما بعد يوم • كما تصقلها الأحداث وتزيد في ربطها بأحداث العالم العربي • • وبنهوض القومية العربية • حتى غدت معركة عمان اليوم ، بفضل ذلك ، جزء من نضال العرب العام •

لقد آمن العمانيون بالتجربة • • وبآلام السنين الماضية ، انهم بقدر ما يستطيعون التغلب على أسباب الفرقة • • بقدر ما يحتفظون بحرية بلادهم واستقلالها • • وبقدر ما يحققون المنعة والاستعداد لتحرير الاجزاء المحتلة من وطنهم •

وبهذا السلاح والمنعة استطاعت قوات عمان أن تخوض حربا طاحنة ضد سلطان مسقط الاجير وضد أسياده الانكليز دامت سبع سنوات وانتهت بظفر عمان •

ففي صيف عام ١٩١٣ احتلت قوات الامام مدينتي نزوى وأزكي (في عمان الوسطى) • وفي أواخر الصيف احتلت مدينة سمائل وحصنها المنيع • ولسمائل أهمية حربية خاصة فهي المنفذ الوحيد الذي يصل بين الساحل والداخل • وقد أدى ضياع سمائل من أيدي أعوان سلطان مسقط الى زعزعة مركزه • فالسلطان بدون معقل سمائل ليس أكثر من شيخ قرية على حد تعبير السر (برسي كوكس) وقد أزال فتح سمائل العقبات من أمام قوات الامام لاحتلال مسقط ، فتقدمت نحوها • ولولا حماية الجيش الانكليزي الفعلية التي عسكرت في (فلج القبائل) على أبواب مسقط • • لانهارت قلاع السلطان وسقطت في أيدي قوات الامام لدى الصدمة الاولى •

مات فيصل بن تركي - سلطان مسقط - في ابان حصار عاصمته، وخلفه ابنه تيمور ، الذي لم يكن أقوى من أبيه ، فلم يستطع أن يفعل شيئا وظلت قوات الامام تحيط بالسلطنة من كل جانب . وبات سقوطها قاب قوسين أو أدنى . وعجز الانكليز - بسبب اشتراكهم في الحرب العالمية الاولى - عن الاستمرار في المقاومة ، فزار اللورد (هاردينغ) نائب الملك في الهند شواطئ الخليج العربي . فنصح للسلطان في شباط (فبراير) عام ١٩١٥ أن يسالم عمان الداخلية . وأن يعقد الصلح معها معترفا باستقلالها . ومتنازلا عن المناطق التي تم احتلالها من قبلها . معلنا له بصراحة : ان الانكليز لن يستطيعوا أن يظلوه بحمايتهم الى أجل غير مسمى . وقد بسط الوكيل السياسي للسلطان الاسباب التي دعت بريطانيا لتقرير هذه السياسة . فمن يطالع هذا التقرير يستخلص الاسباب التالية :

١ - ان قوات الامامة تقبض على مفتاح الموقف وذلك لانها تحتل وادي سمائل وحصنه الذي لم يكن غنى عنهما لازدهار التجارة في مسقط ، في أيام السلم ، ولحمايتها في أيام الحرب .
٢ - ان دعوة الامام الى الجهاد ضد الانكليز وأعوانهم دعوة مخيفة . في ذلك الظرف الدقيق على الأقل . لان الانكليز كانوا يفاوضون في أثناء ذلك شريف مكة لاعلان الجهاد المقدس ضد العثمانيين الى جانب الانكليز - ولا بد له أن يخلق استمرار دعوة الامام للجهاد الديني ضدهم ارتباكات ومصاعب عالمية ولاسيما في الهند وجزيرة العرب وشمال افريقيا .

٣ - لا يمكن حل المشكلة وزد قوات الامام بمجرد استخدام الرشوة وقد اقترحها عليهم سلطان مسقط . لعدم جدوى ذلك . ولان معظم الامراء والقبائل . يعزفون عنها . وقد جرب الانكليز هذه الطريقة قبلا فلم تعطيهم النتائج المشجعة . والا لما زهدوا فيها وهم الذين كانوا - في الوقت ذاته - يبذلون الملايين في هذا السبيل في مختلف مناطق العالم .

٤ - لن تستطيع السفن البريطانية مساعدة سلطان مسقط حينما يحتاج اليها بسبب الحرب ولبعدها وانشغالها بمهمات ذات صفة عالمية .

وقد بدأت بين الانكليز والسلطان من جانب وبين ممثل الامام من جانب آخر في عام ١٩١٥ .

ففي شهر أغسطس من العام المذكور تلقى الوكيل السياسي كتابا بتوقيع الامام وتوقيع الزعماء الثلاثة الشيخ عيسى بن صالح الحارثي والشيخ حميد بن ناصر وقاضي الامام ، وأفقوا عليه على أن يجتمع الوكيل السياسي بالشيخ عيسى بن صالح الحارثي بوصفه ممثلا للامام ، على مقربة من مدينة السيب - على الساحل - لاجراء المفاوضات وبعد محادثات تمهيدية طويلة توقفت المفاوضات وعاد الامير الحارثي . . . وبدأت الاستعدادات للحرب ثانية . وفي تموز من عام ١٩١٦ استولت قوات الامام على الرستاق من حاكمها أحمد بن ابراهيم . وبذلك ضمن الامام قاعدة حربية خطيرة تطل على ساحل الباطنة المحتل من قبل السلطان .

وخاف الانكليز أن تنهار قوات مسقط نهائيا فتنازلوا عن النقاط التي كانوا يتمسكون بها في المفاوضات السابقة . وبدءوا مع ممثلي الامام مفاوضات جديدة ، طالت أربع سنوات ، الا انها انتهت بفوز جبهة نظر الامام .

وفي عام ١٩٢٠ استشهد الامام سالم بن راشد الخروصي نتيجة مؤامرة لئيمة دبرها سلطان مسقط . وحاول الانكليز اثارة الفرقة مرة أخرى لفصم عرى اتحاد الشعب العربي في عمان . ولكن محاولتهم باءت بالفشل ، وتم انتخاب الامام الجديد محمد بن عبد الله الحليلي ، الذي استطاع خلال حكمه الطويل أن يضمن لعمان استقلالها ومهابتها .

وفي أول عهده أنتهت المفاوضات وعقدت معاهدة السيب التي سيأتي شرحها

الاعتراف باستقلال عمان الداخلية :

وقعت معاهدة السيب في اليوم الحادي عشر من شهر محرم الحرام سنة ١٣٣٩ هـ الموافق لـ ٢٥ سبتمبر ١٩٢٠ م . وذلك بعد استشهاد الامام راشد وانتخاب الامام الجديد . وقد وقع المعاهدة ممثل الامام من جهة والمقيم الانكليزي ممثلا عن سلطان مسقط من الجهة الاخرى . وأطلق على المعاهدة اسم المدينة التي عقدت فيها :

« معاهدة السيب » • ومن أهم ما جاء في هذه المعاهدة هو إقرارها باستقلال عمان الداخلية الذي كان حقيقة واقعة • فجاء توقيع الانكليز عليها باسمهم وباسم سلطان مسقط اعترافا قانونيا بذلك الاستقلال الواقعي •

ولئن اختلفت نظرات الكتاب والمؤرخين والشراح الى هذه المعاهدة فما لا شك فيه ان قضية استقلال عمان الداخلية كان واضحا في معظم ما كتبه أولئك •

قال ولفرد تسيجر - الرحالة البريطاني ، الذي قضى وقتا طويلا في الطواف في مدن عمان وما جاورها :

« أنه في عام ١٩٢٠ وقعت معاهدة بين السلطان والعمانيين • وقد رافق السلطان بمقتضاها على أن لا يتدخل في الشؤون الداخلية لعمان » •

وقال الكابتن « اكز » وكان قد تولى قيادة قوات السلطان في قلع القبائل :

« ان ثمة معاهدة وقعت عن طريق وساطة الوكيل السياسي ، ولم يقع عدوان جديد منذ توقيعها » • وقال في مكان آخر :

« ... لقد وقعت معاهدة بين مسقط والشيخ عيسى تعد تسليمنا باستقلاله » •

وقد تناول القنصل الفرنسي (فادالا) هذا الموضوع بالبحث في عام ١٩٢٠ فقال :

« كانت الحرب قد ظلت ناشبة سبع سنوات بين سلطان مسقط وعمان الداخلية ، ولم تنته الا في ٢٥ سبتمبر من عام ١٩٢٠ ، يوم وقعت وثيقة الصلح في السيب ، بين السلطان تيمور وعيسى الحارثي الذي كان يمثل جميع القبائل المحاربة ، وكان (ونفت) القنصل البريطاني ، هو الوسيط في عقدها • وبمقتضاها حق لاهل مسقط وعمان أن يتاجروا ويسافروا بحرية ، ولكن فرضت ضريبة خمسة في المائة على جميع سلع الداخل ساعة وصولها الى الساحل ، وبفضل هذا الصلح الذي كان ينتظر أن يعقبه ميثاق سرى يحظر كبل طلب للتدخل الاجنبي ، صارت عمان اليوم هادئة ، وغدا في وسع التجارة أن يتسع نطاقها » •

ولكن الى جانب هذه الآراء المحايدة لابد أن نورد رأيا يثير بعض الشكوك حول استقلال عمان لنناقشه :

يقول الموظف الانكليزي (برترام توماس) وكان وزيرا للسلطان ومستشارا ماليا ، منذ عام ١٩٢٥ حتى عام ١٩٣٠ ، بصدد المعاهدة ما يلي :

« ... أمكن الوصول الى تسوية ، تقوم على أساس الحالة الراهنة • وبمقتضاها ظل السلطان سلطانا من الوجهة القانونية على مسقط وعمان • ونصت التسوية على أن تكون لقبائل الداخل حكومة من بينهم ، تعتمد على أساس الامر الواقع ، لتدبر شؤونهم المحلية البحتة » •

نرى من سرد هذه الفقرة أن الكاتب الانكليزي ومستشار السلطان أراد التشكيك في استقلال عمان فزعم أنه استقلال واقعي • • بحث وليس له سند قانوني • • وأن سيادة سلطان مسقط تشمل المنطقتين الساحلية والداخلية •

والحقيقة أن نصوص المعاهدة تكذب هذا الزعم • وأن التفسير الذي جاء به لم يكن صحيحا • وانه لم يصدر أية وثيقة خطية علنية أو سرية عن الامام أو القبائل المحاربة تعترف بأية سلطة أو طاعة للسلطان • بل على العكس من ذلك فان جميع المنازعات والخلافات مع مسقط كانت تقوم على أساس انكار أية سلطة أو سيادة لحكام مسقط على عمان الداخلية • ومنع هؤلاء الحكام - ولو بالقوة - من التدخل في شؤونها • بل ولم تكن الامامة أو القبائل لتعترف للسلطان أو نوابه بأية سلطة شرعية على مسقط وما يجاورها •

يضاف الى ذلك أن كل من كتب عن الموضوع بما فيهم هذا الموظف الانكليزي أجمعوا على وجود حكومة قائمة في الداخل • تتولى جميع شؤون عمان الداخلية •

معاهدة السيب :

أن معاهدة السيب هي صك الاعتراف باستقلال عمان • لذلك نرى من الواجب علينا أن نتناول بنود هذه المعاهدة بالشرح وأن نبين مواطن الاعتراف بهذا الاستقلال ومدى شرعيته من الوجهة القانونية :

تتكون المعاهدة من ثمانية مواد . الاربعة الاولى منها وضعت لصالح عمان الداخلية . والاربعة الاخيرة انما وضعت لصالح السلطان ولكننا بتدقيق البنود الثمانية نجد انها مكرسة بمجموعها لايضاح قضية الاعتراف باستقلال عمان . وخاصة المواد الاربعة الاخيرة .
بنود المعاهدة :

أولا : أن يكون كل وارد من عمان من جميع الاجناس ، الى مسقط ومطرح وصور وسائر بلدان الساحل ، لا يؤخذ منه زيادة عن خمسة في المائة .
ثانيا : أن يكون لجميع العمانيين الامن والحرية في جميع بلدان الساحل .

ثالثا : جميع التحجيرات على جميع الداخلين والخارجين من مسقط ومطرح وجميع بلدان الساحل ترفع .
رابعا : أن لا تأوى حكومة السلطان مذنباً يهرب من انصاف العمانيين وأن ترجعه اذا طلبوه منها . وأن لا تتدخل في داخليتهم هذه الشروط الاربعة للامامة اعترافاً باستقلالها وأربعة شروط للسلطنة هي :

أولا : كل المشايخ والقبائل يكونون بالامن والصلح مع حكومة السلطان وأن لا يهاجموا بلاد الساحل وأن لا يتدخلوا في حكومته .
ثانيا : كل المسافرين الى عمان لمشاكلهم الجائزة والامور التجارية يكونون احرارا ولا تكون تحجيرات على التجارة ولهم الامن .
ثالثا : كل محدث ومذنب يهرب يطردونه ولا يؤوونه .
رابعا : أن تكون دعاوى التجارة وغيرهم على العمانيين تسمع وتفصل على موجب ما هو الانصاف بالحكم الشرعي .
حرر هذا في بلد السبب يوم الحادى عشر من شهر محرم سنة ١٢٣٩ هـ الموافق ٢٥ سبتمبر سنة ١٩٢٠ م .

قد آتممت ما آتمه الشيخ عيسى بن صالح عني من هذه الشروط .
كتبه امام المسلمين محمد بن عبد الله بيده .
أقول وأنا نائب امام المسلمين محمد بن عبد الله الخليلي ، انى رضيت الشروط المحررة هنا بتفويض من امام المسلمين ، وأنا عيسى ابن صالح بيده .

هذه هي المعاهدة بينودها الثمانية وبتواقيع عاقيدها .
ان من يدقق في بنود هذه المعاهدة . . تبرز له الاعتراف باستقلال عمان من كل نص من نصوصها تقريبا . لا يعتوره لبس ولا غموض وهو لا يحتاج الى الشرح .

وذلك لان تسليم المجرمين ، وعدم التدخل في الشؤون الداخلية ، والقبول بقضاء البلد الآخر وفرض الرسوم الجمركية . . والتأكيد على قيام السلم والامن بين المنطقتين كلها نصوص لا يمكن أن ترد بين جزئي دولة واحدة . . بل ترد في المعاهدات الدولية القائمة بين دول مستقلة يعترف بعضها باستقلال بعض .

ففي البنود الاربعة الاولى تعترف حكومة مسقط بوضع حقوقى مستقل لرعايا (عمان الداخلية) ولقوانينها ولقضائها ، كما تفرض الجمارك على بضائعها الصادرة أو الواردة .

أما البنود الاربعة الاخيرة فتعترف بصورة أكثر وضوحا بالوضع الاستقلالى لعمان الداخلية ولقبائلها . فهي في البند الخامس (الاول من الاربعة الاخيرة) تشترط أن لا يتدخل مشايخ وقبائل الداخل في شئون مسقط .

وهكذا يتضح لنا أن حكومة مسقط كانت في شك من أمراستقلالها . . بل كانت في خوف على هذا الاستقلال من القبائل والمشايخ في الداخل فحرصت على ضمان ذلك . . وابرآزه في البند الاول . وليس هذا بغريب فان امامة عمان - التي تمثل الحكم الشرعى الوحيد في الساحل والداخل - لم تعترف قط . ولا اعترف زعمائها أو ذوى الرأى فيها بأية سلطة مشروعة لحكام مسقط ، لا في الداخل ولا على الساحل . وان الخلاف بين الفريقين ، لا يدور - في الحقيقة - حول الاعتراف باستقلال عمان الداخلية . بل يدور حول استقلال مسقط ذاتها . والبنود الاربعة الاخيرة توضح لنا هذه الناحية بجلاء .

ولنعد لمعرفة أسباب الحرب التي جاءت بمعاهدة السبب خاتمة لها ، ففي الكشف عن أسبابها يتضح لنا موقف عمان . . والوضع الحقوقي الراهن لمسقط .

ان أئمة عمان هم الذين أعلنوا الحرب لتحرير الساحل والداخل في عام ١٩١٣ . على أثر بعث الامامة . واكتسابها الصفة الشرعية .

وتمثيلها لعمان ساحلا وداخلا • أسوة بما فعله الامام عزان بن قيس حينما بعثت الامامة في عهده وذلك في النصف الثاني من القرن التاسع عشر • وفي كلا العهدين • كان الحكم في الداخل يتوسط بسهولة وتتجه قوات الامام مباشرة لتحرير الساحل واسقاط الحكم في مسقط وضمها الى ارض الامامة • كما حصل فعلا في عهد عزان ابن قيس • وكما حاول الامام راشد في عام ١٩١٥ • ولولا التدخل الاجنبي السافر لثم له ذلك أيضا •

واذا فان استقلال عمان الداخلية هو الامر الثابت والمتفق عليه من الجانبين أما استقلال مسقط فهو موضع الشك • والشعب العربي الذي يحكم عمان عن طريق انتخاب الائمة بمحض ارادته واختياره ، لم يكن ليجتاج الى من يعترف باستقلاله بعكس مسقط التي كانت أحوج ما يكون الى هذا الاعتراف • الذي يمنحها الطمأنينة والأمن • وهذا ما جرى فعلا بين (١٩٢٠ - ١٩٥٤) • أى على أثر معاهدة السيب •

ولهذا نجد حكام مسقط والمقيم الانكليزي الذي يتولى المفاوضات نيابة عنهم أصروا على النص الذي ورد في البند الخامس والذي ضمن لهم عدم تدخل أئمة عمان في شؤون مسقط •

الفصل الثامن عشر

تدخل الاستعمار الاميركي ضد شعب عمان

قبل أن أنتهى من سرد قصة الاستعمار ، فى هذه المنطقة ، وقبل أن أبدأ فى سرد فصول العدوان الانكليزي الاخير • أود أن أشرح نقطة أخرى لم أتناولها فى الفصول السابقة بالبحث ألا وهى قصة الاستعمار الاميركي ، ومدى تدخله ضد الشعب العربي فى عمان • ولا سيما بعد أن سوى خلافاته مع الاستعمار الانكليزي ، ونال حصته فى منابع النفط المكتشفة • وفى الحقول التى ينتظر أن تكتشف •

عرضت عليك أيها القارئ الكريم ، نتفا من تاريخ الاستعمار

العالمى فى هذه المنطقة العربية ، منذ حركة الاستكشافات حتى اليوم • • فتناولت الغزو البرتغالى ، ثم الغز الفرنسى ، والهولندى والتركي والفارسى • • ثم توسعت قليلا فى شرح خطط الاستعمار الانكليزي والأعبييه ودسائسه ، لانه لعب الدور الاول والاكبر • • ولانه أنزل بالمنطقة أفدح الاضرار • • وشرحت بشيء من التفصيل تاريخ المقاومة العربية الباسلة فى مختلف أدوارها •

ولكننى لا أريد أن أنهى موضوعى هذا، دون أن أشير الى الاستعمار العالمى الاكبر - اليوم - الاكبر كثيرا • • الى زعيم الاستعمار وحامى حماه فى العالم • • ألا وهو الاستعمار الاميركي الذى ركز قواعده فى كل مكان من أرجاء المعمورة • واحتل الكثير من مواقع منافسيه بما فيهم الانكليز • ولم تفلت بلادنا العربية الحبيبة - طبعاً - من برائته الملوثة بدماء الشعوب •

فها هى شركاته الاحتكارية ، تمتص دم شعبنا فى شواطئ الخليج العربى وفى جزيرة العرب • وفى الصحراء الجزائرية العربية الكبرى وفى مراكش • • وليبيا • •

وها هى قواعده تربض على صدورنا • • أو تطرق حدودنا من الشمال والشرق والغرب والجنوب •

وها هى مؤمراته تحاول جادة • • مصممة • • على أن تلف حبالها حول أعناقنا لمحق حركاتنا الوطنية • • وايقاف انطلاقتنا التحررية • • وتكبييلنا بقيود الاستعمار التى حططنا معظمها •

بل اننا لنجد آثار أقدام هذا الاستعمار المتكالب ، تجوس ديارنا خفية هنا وهناك ، بمختلف الوسائل • وما قصة الاحلاف ومناطق النفوذ ومبدأ ايزنهاور الا أمثلة على ذلك • فإذا ما استطاعت أن تدق وتدا لها فى بلادنا • • تمسكت به واتخذته منطلقا لها نحو مكاسب أخرى •

ورغم اننا نسمع كثيرا عن النزاع والمنافسة ، بين الاستعماريين القدماء والمحدثين خاصة الاستعمار الانكليزي والامريكي فان هذه المنافسة والنزاع ، لا يمثلان - بالنسبة لنا - الامقدمات للتسوية والاتفاق . مقدمات لا تقسم خيراتنا ونهب ثرواتنا ومص دماء شعبنا

علاقات أمريكا بمسقط :

وتعود علاقات أمريكا الاولى بمسقط وعمان الى عام ١٨٣٣ . فقد نمت تجارة مسقط في مطلع القرن التاسع عشر بشقيها الاسيوي والافريقي ، نموا ظاهرا . لفت اليه أنظار العالم الجديد . فكانت أمريكا أول من بادر الى الاتصال بحكومة مسقط وأقامة علاقات دبلوماسية تملئها المصالح التجارية معها .

فعقدت أول معاهدة بين أمريكا وبلاد العرب في سبتمبر عام ١٨٣٣ وهي التي تمت بين مسقط والولايات المتحدة الأمريكية . وكانت المعاهدة تهدف الى ثلاثة أغراض اقتصادية :

أولا : توسيع عمليات التجارة بين ممتلكات مسقط في أفريقيا وبين الولايات المتحدة الأمريكية .

ثانيا : ضمان حرية التجارة وأمنها في المحيط الهندي .

ثالثا : تنظيم الرسوم الجمركية في تلك البقعة النائية بالنسبة لأمريكا .

وقد ظلت علاقات أمريكا بمسقط والبلاد العربية ضعيفة - بصورة عامة - ولكن ما أن تطورت اقتصاديات أمريكا . ونمت الطبقة الرأسمالية فيها . واتجهت أنظارها الى الاستعمار . وظهرت الاحتكارات العالمية الأمريكية الكبرى . وأخذت تبحث عن ميادين الانتاج والاستثمار والنهب في خارج أمريكا . وظهرت أهمية النفط العربي في الربع الثاني من القرن العشرين . وتم لأمريكا أن تمتلك حق استثمار نفط المملكة السعودية . حتى أخذت الاحتكارات الأمريكية تمتن علاقاتها بامارات الخليج العربي ومشيجاته وتستولي - بمختلف الطرق - على امتيازات التنقيب عن النفط واستثماراته

كانت المنافسة بين المستعمرين في القرنين الاخيرين ، تقود الى حروب موت أو حياة . بين المستعمرين المتنافسين . وتسبب تدمير الخاسرين منهم في هذه المعركة ، وخرابهم بل ونهايتهم أحيانا . كما كان الامر بالنسبة للاستعمار الهولندي والبرتغالي مثلا .

أما الآن ، فقد اختلف الامر نسبيا . ولم يعد للمنافسة الاستعمارية بين الدول الكبرى ، ذلك الطابع العنيف ، بل تحولت الى معارك ثانوية ، تنتهي على الاغلب ، بالتسويات والاتفاقيات ، وتعايش المتنافسين الاستعماريين ، على أساس اقتسام الفريسة .

فما هو السبب الجوهرى الذى قاد الى تبديل جذرى فى علاقات المتنافسين الاستعماريين ، لهذا التبدل ؟

السبب الاول - فى نظرى - يعود الى ظهور عوامل جديدة - على مسرح السياسة الدولية . لم يكن لها من أثر يذكر ، فى القرنين الماضيين . أو لم يكن لها الاهمية التى لها اليوم .

لقد تعاظمت حركات التحرر فى العالم . وأخذت شعوب المستعمرات تلقى بثقلها فى المعركة . وهكذا ظهر منافس من نوع جديد . منافس أشد خطرا على الاستعمار والمستعمرين جميعا . منافس لا يرتضى سياسة التسويات . ولا يقبل بأنصاف الحلول .

وقد أدرك المستعمرون خطورة هذا المنافس . وخبروا - بالتجربة - مدى صلابته وتصميمه على النصر . وانهم لن يتقوا الهزيمة الا بتفاهمهم . وحشد قواتهم المشتركة . وتنازل بعضهم لبعض عن جملة من الحقوق . وايجاد تسوية جدية للمشاكل . والا هزمهم المنافس الجديد .

• في كل الشرق الاوسط • ومن جملة ذلك منطقة مسقط وعمان •
لقد جمع المحتكرون الامريكيون ثروات ضخمة من استثمار البترول
• وظهر - بسبب ذلك - أصحاب ملايين - لأول مرة - من عمالئهم
شيوخ المنطقة وأمرائها وملوكها • وسال لعاب الامراب والشيخوخ ،
في المناطق الاخرى المجاورة ، وخاصة سلطان مسقط ، وتآقت نفوسهم
الى مثل هذا الثراء • فأخذوا يتململون من النفوذ الانكليزي ويضيقون
ذرعاً به ، لأنه تباطأ في استثمار هذه الثروة ، ولم يستطع اللحاق
بالاستعمار الامريكي الطائل الثراء •

وشرع بعضهم يتحكك بالامريكيين ، ويسهل لنفوذهم أن يتسلل
الى بلاده ليسلط عليها جناحيه •

بهذه الوسيلة ، وبهذه الاسباب ، استطاع الامريكيون أن يصلوا
الى ظفار وأن يحصلوا من سعيد تيمور على امتياز التنقيب عن النفط
واستثماره فيها ، والبحث عن الآثار القديمة في المنطقة • وذلك
في عام ١٩٣٩ •

ولم يكذب الامريكيون ظن سعيد فقد بدأوا التنقيب في حصولهم
على الامتياز • ولم يكتفوا بمنطقة ، بل امتدت أنظارهم الى كل شبر
في بلاد العرب • وبدعوا فعلاً أعمالهم في واحة البوريمي عام ١٩٤٩
فكشفت الخبراء الفنيون عن حقيقة مخزون المنطقة المغري من البترول
• وانتشرت هذه الاخبار ••

فأطارت أنبأؤها صواب الانكليز • وأخرجتهم عن « رزانتهم »
المعهودة • فبدأوا تدخلهم في شئون البوريمي •• وادعوا ملكيتها
ثم احتلوها •

ففي أبريل عام ١٩٤٩ • وبينما كان فنيو شركة (الارامكو)
يقومون بأعمالهم التمهيدية في المنطقة •• على أساس أنها منطقة
سعودية ، وبالتالي تدخل ضمن احتكاراتهم • جأر الانكليز بالشكوى •
وأعلنوا أن واحة البوريمي تابعة لسلطان مسقط وهي ليست
سعودية •

ان الذي يهم الشركات الانكليزية من الموضوع - طبعاً - لم تكن
تابعة البريمي • أكانت للسعودية أم لمسقط • بل ان الذي كان
يهمها : عائدية البترول •• ومن يستثمره ؟ أهم الانكليز •• أم
الامريكان ؟ وبما أن الشركات البريطانية قد آخضت - دون غيرها
- بنهب ثروات مسقط • فهي أولى من الشركات الامريكية في نهب
بترول البريمي أيضا •

وعلى أساس هذا المنطق ساقط جيوشها فاحتلت البريمي • وطردت
موظفي شركة الارامكو منها •

ولم يكن منطق الامريكان يختلف عن منطق الانكليز •• وعلى أساس
تعيين ملكية استثمار البترول بالاستئثار بنهبه ، قامت المنافسة
الضارية بين الدولتين ••

ولكننا أعطينا هذه المنافسة ، أكثر مما تستحق من الاهتمام ••
وعلقنا على نزاع الدولتين آمالاً •• خيالية •• في السنوات العشر
الماضية •

ولسنا هنا في معرض التخفيف من أهمية النزاع أو نكرانه ••
بل في صدد الكشف عن طبيعته لعدم الوقوع في تقديرات
خاطئة ، واستنتاج نتائج وهمية تضر في قضيتنا العامة وتوهن
كفاحنا • كما سبق وحصل ••

فمما لا شك فيه أن الهلع قد ملأ قلوب الانكليز •• حين بدأ
الاستعماريون الامريكيون يتقدمون باصرار لاحتلال مواقعهم الواحد
تلو الآخر ••

لقد خرج الامريكيون من الحربين العالميتين الاولى والثانية أكثر غنى
وأكبر قوة •• وأشد طمعا • وهذا هو الأهم •• فمن البديهي اذن
أن يجتذبوا معظم عملاء بريطانيا • وأن يشتروا أسهمها •• وأن
يسيلوا لعاب الطامعين بالثراء السريع أكثر مما تستطيعه امبراطورية
عجوز ••

لقد تمكن الأمريكيون فعلا ، من اقناع سلطان مسقط بمنحهم حق التنقيب عن البترول في زاوية من زوايا منطقته (في ظفار) كما قدمنا فأعقدوا على السلطان الشره أعطياتهم ، فأسروه .. ومن الممكن أن يأسروا غيره بهذه التهمة السحرية ..

ان خوف الانكليز من تغلب الاستعمار الامريكى . كان خوف حقيقيا وان المنافسة والنزاع بين الفريقين لم يكونا وهما من الاوهام . ولكن المنافسة والنزاع ، ظلا - دائما - محصورين في نطاق معين ضيق . لم يتعدياه قط . نطاق المحافظة على مصلحة الاستعمار - بصورة عامة واضعافه اضعافا جديا .. والحيولة دون أن تسبب المنافسة تقوية أعدائه ، على حسابه .

ان ابقاء المنافسة - وهذا ما نريد التأكيد عليه - في حيز يجعلها مجرد مقدمات لتسوية استعمارية جديدة بين المتنافسين .. أو تقسيم جديد للمصالح الاستعمارية بينهم .. ليس الا .

لقد خدع الكثيرون . وطنوا : أن المعركة الدائرة بين الوحشين الاستعماريين (الانكليزي والامريكى) ، لا بد أن تنتهى بأن يشخن كل منهما الآخر بالجراح . فتستفيد القضية العربية من وراء ذلك ، وتتخلص من الاثنين .

لا شك أن تقاتل الاعداء يفيدنا .. واننا يجب أن نستفيد ، ما أمكن من مثل هذا الطرف اذا حدث .. ولكن على شرط أن لا نغض أعيننا عن حقيقة أخرى أكثر أهمية .. ألا وهى التسويات التى أصبحت اليوم نتائج حتمية لكل نزاع استعماري بين الطامعين تقريبا ولا أدل على ذلك .. من أن أحلام المتفائلين عندنا ، أكثر من الإلزام ، سرعان ما تبددت ...

فقد انتبه الوحشان الاستعماريان .. إلى حقيقة الخطر الآخر .. الذى هدد كليهما .. خطر النهوض الوطنى .. فى بلاد العرب .. وفى العالم كله ..

خطر المد الثورى العارم فى آسيا وأفريقيا .. خطر الجبهة العالمية القوية المعادية للاستعمار وعلى رأسها جبهة دول الحياذ الايجابى .. وأخيرا .. أدركا خطر القومية العربية - فى يقظتها الثورية الجديدة .

خطر قيام الجمهورية العربية المتحدة .. وتسلمها قيادة معارك الكفاح العربى ضد الاستعمار فى مشرق الوطن ومغرب . فتناسيا خلافاتهم .. واستطاعا بسهولة ، ان يكتشفا طريقة ، لاقتسام ثروات المنطقة المتنازع عليها .. وتمت التسوية الاستعمارية - على حسابنا كالعادة .

ولم يعد ثمة ما يمنع الامريكيين من تناسى الاحقاد المصطنعة بينهم وبين الانكليز . ومن ان يقفوا الى جانب شركائهم - عالميا - ضد شعب عمان العربى المجاهد .

ففى ٣ أغسطس من عام ١٩٥٧ ، وبعد ان اشتد العدوان الانكليزى الغادر على عمان .. وبعد ان بدأت القذائف والصواريخ والمدافع الثقيلة والطائرات النفاثة تدمر وتحرق .. وتبيد معالم الحياة فى عمان .

وبينما كانت الامة العربية فى غليان وثورة ضد المستعمرين من الخليج العربى حتى المحيط الاطلسى .. وبينما كانت وفود آسيا وأفريقيا ترفع أصواتها فى أروقة هيئة الامم المتحدة صاخطة محتجة . وتحاول فى الوقت ذاته رفع القضية العمانية الى مجلس الامن .

وقف دالاس وزير خارجية أمريكا ليقول :
« ان الولايات المتحدة الامريكية لا تعرف كثيرا عن قضية عمان .. ونحن ننظر الى هذه المشكلة على انها مشكلة محلية .. ونأمل ان تحل سريعا » .

أى ان دالاس كان يتمنى ان يتم قضاء الانكليز السريع - بمجازرهم الوحشية التى تناقلتها وكالات الانباء - على مقاومة شعب عمان ، وتصفية نضاله .

ولم يكتف دالاس بهذا التصريح الذى ينضح بالسم .. والتحيز ، بل أخذت الولايات المتحدة الامريكية ، تبذل جهودها الكاملة لتحول دون عرض مسألة عمان على مجلس الامن الدولى . حتى لا تثير الامم والشعوب ضد شريكها الاستعمار الانكليزى .

الفصل الثاني عشر

أول معاهدة بين بريطانيا وبلاد العرب

معاهدة مسقط عام ١٧٩٨ :

انتصر الإنكليز في عام ١٧٩٨ انتصارا حاسما في مجال تثبيت نفوذهم في المنطقة العربية . وتحويل علاقاتهم الى نصوص خطية . واحلال نفوذهم محل النفوذ الفرنسي . بالاتفاق المباشر مع حاكم مسقط . ووضع أول معاهدة معه . وهى أول معاهدة أيضا بين بريطانيا وبين حاكم عربى .

عندما علم الإنكليز فى بومباي ، ان الحملة الفرنسية قد استقرت فى مصر عام ١٧٩٨ . وان نابليون قد اتصل بأشراف مكة وحاكم مسقط . وأرسل كتابا بواسطة مسقط الى حاكم ميسور الثائر . اضطربوا وخافوا نتائج سكوتهم . فأرسلوا بعثة الى جدة ، لتكون حلقة اتصال بين الإنكليز وبين شريف مكة . كما أوفدوا أحد موظفى شركة الهند الشرقية وهو فارسى يدعى (مهدي على خان) الى مسقط للتفاوض مع السلطان وقطع الطريق على الفرنسيين . واقامة وكالة تجارية انكليزية فى مسقط ، واحلال الاطباء الانكليز محل الاطباء الفرنسيين الذين كانوا يعملون فى خدمة سلطان مسقط منذ زمن . وقد وصلت بعثة مهدي على خان الى مسقط فى ٢ اكتوبر ١٧٩٨ . وبعد عشرة أيام من المفاوضات توصل الطرفان الى اتفاق وعقدت معاهدة بين بريطانيا ومسقط . كان الاحتياط فيها ضد فرنسا واضحا ومقصودا :

حوت المعاهدة ثلاث نواح مهمة هى :

أولا : ابعاد النفوذ الفرنسى ومحاربته .

ثانيا : ابعاد حكام مسقط عن شعبهم وربطهم ببريطانيا مباشرة .
ثالثا : توطيد النفوذ الانكليزى بصورة فعلية وثابتة . بفرض الموظفين على السلطان وافساح المجال أمامهم للتدخل فى شئون السلطنة . وباقامة وكالة دائمة للانكليز تكون مرجع هذا النفوذ

ولكن خطر اشتداد النفوذ الفرنسى استأثر بمعظم مواد المعاهدة فوضعت النصوص الملزمة للسلطان بمقاومته حتى ان هذه النصوص غطت على النواحي الاخرى ، حتى يبدو لمن يدرس نصوص الاتفاقية ان الإنكليز ، كانوا يهتمون بمحاربة النفوذ الفرنسى أكثر من اهتمامهم بانشاء صداقة مع سلطان بن أحمد - حاكم مسقط -

لقد خصصت المواد (٣ - ٥) من أصل سبعة بنود ، لتعيين الاجراءات التى يجب على حكام مسقط ان يتخذوها ضد فرنسا . ومن أهم هذه الاجراءات ، التعهد بعدم السماح للفرنسيين باقامة وكالة لهم فى مسقط وتوابعها . مع الوعد بطرد جميع الرعايا الفرنسيين من خدمة السلطان .

كان الإنكليز يدركون المغزى الحقيقى للاتفاقية . فاستفادوا منها الى أقصى الحدود . وعملوا - جاهدين - على توثيق علاقاتهم بالسلطين ، ووسعوا - فى الوقت ذاته - شقة الخلاف بينهم وبين شعب عمان . وفصلوهم - نهائيا - عن عمان الداخلية . وباعدوا بينهم وبين قبائلها القريبة المستقلة . وربطوا مصلحة السلطين ربطا مباشرا ، ولكن بصورة تدريجية ، بحكومة الهند . وقيدوا تصرفاتهم الخاصة والعامة برضاها .

وقد أشار مالكولم الى هذه الحقيقة كما سبق وذكرنا ذلك فى الفصل السابق .

وقال هوغارث :

« ان هذه الاتفاقية قد ألزمت بريطانيا العظمى - منذ ذلك الوقت - بأن تؤيد حكام مسقط ، ضد شعب عمان » .

تتضمن المعاهدة سبعة بنود . تعهد فيها السلطان - بالإضافة الى ما تقدم - ان يغلق موانئه فى وجه الفرنسيين مدة الحرب بين الطرفين . وان يستعين بمشورة موظف انكليزى يقيم فى مسقط .

ولما حاول السلطان التلکؤ فى السماح باقامة وكالة انكليزية فى مسقط . هدهه الإنكليز بغلق موانئ الهند من سورات الى كلكته ، فى وجه سفن مسقط ومقاومة تجارتها . فرضخ لارادتهم ، وأجابهم الى مطلبهم .

وفى عام (١٨٠٠ م - ١٢١٤ هـ) وبينما كان الكاتبن جون مالكولم المذكور آنفا ، فى طريقه الى بلاد فارس ، اجتمع بحاكم مسقط وأقنعه

بتوقيع اتفاق جديد يسمح بتعيين وكيل بريطاني في مسقط . وكان مالكوهم متهيئا للمفاجآت والظروف . فقد استقدم معه مقيما يفي بهذا الغرض عند الحاجة . هو الطبيب الجراح (بوجل) . فأبقاه في مسقط ليقوم - لأول مرة في التاريخ العربي الحديث - بوظيفة المقيم البريطاني .

وبعد ان انتهى صلح اميان بين فرنسا وانكلترا وعادت الحرب بين الدولتين في ١٨٠٣ ، اضطر حكام مسقط لتعيين موقفهم النهائي من المنافسة الانكليزية الفرنسية . ووقفوا الى جانب الانكليز .

لذلك نجد حاكم مسقط يقف موقفا صارما من مبعوث نابليون . فعندما وصل مبعوث نابليون الخاص (كافنيك) الى مسقط في شهر اكتوبر من عام ١٨٠٣ أبى الحاكم استقباله . وأرسل له مندوبا يبلغه ذلك .

قال المندوب له :

« كان الحاكم يتمنى ان تصل في فترة سلام ، حتى يستقبلك السلطان بشوق . غير ان الانكليز ولا شك ، يفضون على سيدي ، لو سمح لك ان تجيء بعد اعلان الحرب بينكم . لدينا عشرون سفينة كبيرة في موانئهم في البنغال أو على ساحل ماليلبار ، وليس ثمة ريب في انه سيتم الاستيلاء عليها حالما يبلغون التعليمات » .

وقد يبدو للمرء بعد مطالعة هذا النص ان حكام مسقط قد اختطوا لأنفسهم خطة سياسة نهائية . مدفوعين بمصالحهم الاقتصادية . فوقفوا الى جانب الانكليز . ولكن الحقيقة كانت بخلاف ذلك .

ان روح الذلة والخنوع كانت قد طبعت حكم هؤلاء السلاطين بطابعها المميز . فلم يترددوا عن اظهار الطاعة المهيمنة لأكثر من سيد ، في آن واحد .

فقد كتب سعيد بن سلطان سنة ١٨٠٦ ، وذلك حينما اعتلى العرش . الى ديكان القائد العام للممتلكات الفرنسية في المحيط الهندي يقول له فيه :

« . . . موكد ان سعادتكم لا تجهلون سلاطة الامة الانكليزية وكبرياءها وكذلك قوتها في الهند » . ثم طلب منه في آخر الكتاب ان يعتبر « مسقط تابعة لفرنسا ، وان تعتمد على استعدادي لاطاعة أى أوامر قد تشرفني بها فرنسا » .

وطلب سعيد أيضا - في ذات الوقت تقريبا - من الحاكم البريطاني في بومباي : « ان يصون معاهدات الصداقة والتحالف القديمة . وطلب صراحة الحماية البريطانية ضد الفرنسيين » .

وهكذا كان حكم سعيد - على طوله - عهد خيانة وذل مهينين ، واستسلام مطلق . وربط بلاده بالمعاهدات والقيود والتعهدات .

وكانت حجته : انه يحمى - بهذه السياسة - نفسه من هجمات السعوديين . . . والحقيقة التي لا مرأى فيها انه اتخذ هذه الحجة وسيلة لكسب تأييد الاجنبي وجر المغنم الى جيبه الخاص . وكسر شوكة خصومه . واذلال الشعب العربي في عمان . فازدادت منهوباته . . . وازداد معها النفوذ الاجنبي وقيوده .

ولا أدل على ذلك من انه لم يخفف من تبعيته للاجنبي وانصياعه له قيد شعرة ، حين سقط حكم السعوديين بعد استيلاء محمد علي باشا على جزيرة العرب وتهديم عاصمة الوهابين (الدرعية) .

أسطورة محاربة القرصنة والرقبيقي :

منذ سنة ١٧٨٤ انتقلت سياسة الهند وادارة شئونه من أيدي شركة الهند الشرقية الى أيدي موظفي الحكومة البريطانية . فقد عينت الحكومة البريطانية حاكما عاما للهند ، يتولى - باسمها - هذه الشئون .

وكانت المنافسة الدولية الضارية واشتداد الخطر الفرنسي وتوسع المصالح البريطانية من أهم أسباب هذه الخطوة . لأن حماية امبراطورية واسعة غنية كالامبراطورية الهندية أصبحت أكبر من ان تستطيع شركة تجارية القيام بمهامها على الوجه الصحيح .

وهكذا يصح ان نقول : بأن مهام الحكومة الانكليزية في الشرق قد تحولت بعد سنة ١٧٨٤ الى حماية الامبراطورية وتقويتها وتوسيع رقعتها والسيطرة التامة على جميع السبل المؤدية اليها .

وبما ان الخليج العربي وعمان كانت تعج بالقبائل المناهضة للنفوذ الانكليزي . وبما ان موجة السخط على بريطانيا وكل الاجانب كانت عامة شاملة . وكانت الاساطيل الضخمة التي تملكها عمان والقبائل العربية في سواحل الهندنة ، تجوب بحر العرب والبحار المجاورة بحرية تامة . وكانت المنافسة بينها وبين اساطيل شركة الهند على أشدها . ولم يكن هنالك ثمة أمل في تخفيف المنافسة أو ايجاد أية

تسوية للتوتر القائم بين الجهتين • فأسطول شركة الهند كان لا يرضى بحل غير تدمير الاساطيل العربية واحراق موانئها •• وازالتها كلية من ميدان المنافسة • وكانت الاساطيل العربية - تدرك هذه الحقيقة • وتعلم ان التدخل الاجنبى فى السواحل العربية انما كان يهدف الى القضاء عليها والاستيلاء على تجارتها • فكان لا بد لها من نخوض حربا دفاعية مقدسة ضد التدخل الاجنبى وضد أسطول شركة الهند الانكليزية بالدرجة الاولى •

ان هذه الحرب الضاربة والمواقع البحرية الرهيبة التى نجمت عنها • كانت الحل الوحيد الذى يمكن ان تلجأ اليه قوة تحترم نفسها •• وتدرك مدى الخطر المحدق بها • ولكنها كانت حربا تهدد المصالح الاستعمارية تهديدا مباشرا أيضا • فوجه المستعمرون اليها هجومهم المادى والفكرى •• ونعتوها بكل نعت سيء ووصموا مقاومة الاساطيل العربية ودفاعها عن نفسها بأعمال القرصنة واللصوصية • ورفعوا شعار الحرب المقدسة ضدها •• لتحقيق حرية البحار •

ولم يكن يعنى شعار حرية البحار بالنسبة اليهم ، الا حماية المصالح الاستغلالية التى كانوا يزاولونها • مع تأكيد زعامة الاسطول البريطانى وسيطرته على البحار •

ولكى يستطيع الانكليز فرض اشرافهم الدائم على الطرق البحرية واعطاء الصفة الشرعية لتدخلهم • اخترعوا أسطورة مكافحة تجارة الرقيق • فأتيج للاساطيل البريطانية - بهذه الوسيلة - ان تعترض جميع السفن - أيا كانت جنسيتها - وأن تفرض عليها ، عملية التفتيش • وكثيرا ما كانت تصادرها أو تفرض عليها الغرامات بحجة انها تتاجر بالرقيق •

لقد استغلت البحرية الانكليزية اجراءات محاربة تجارة الرقيق أسوأ استغلال متخذة فى هذه السلطة الاستثنائية التى منحتها لنفسها سلاحا فتاكا من جملة أسلحتها الاستعمارية الكثيرة ، لتوطيد السيطرة الانكليزية على البحار •

ففى المادة الثانية من معاهدة ١٨٣٩ ، مع سعيد بن سلطان اشتركت الحكومة الانكليزية معها فى حق تفتيش السفن الأخرى ، سفن شركة الهند الشرقية • ورغم ما فى هذه المادة من هدر لمركز

السلطان وكرامته ، اذ أباح لشركة تجارية عادية حق الرقابة والتفتيش على سفنه ، والاشراف على أعمال أسطوله • فقد قبلها بذلة وخضوع • وهكذا يتضح أن الاعتبارات الانسانية فى مكافحة الرق ومنع تجارته ، كانت الناحية الوحيدة التى لم تفكر فيها بريطانيا ، ولم تعرها أية أهمية • وذلك لأن الاهتمام الاول انما وجهته الى تعميق امتيازاتها وتوسيعها • وهذا ما كان يحققه لها الاشراف الفعلى على السفن غير الانكليزية •

ومن الأدلة على ما تقدم أن الانكليز كانوا يرفضون اشراك غيرهم من الدول الاوربية فى المساهمة فى حق التفتيش والاشراف • فقد رفضوا اشراف الدولة العثمانية مثلا فى رقابة الملاحة فى الخليج العربى كتب هتل يقول :

« ان الدولة العثمانية ستتخذ من هذه الرقابة حجة لارسال أسطول حربى الى الخليج ، وسيكون هدفها الحقيقى هو إعادة نفوذها فى بلاد العرب • فلا بد إذن من توقيع اتفاق مع الدولة العثمانية يضمن لبريطانيا وحدها حق التفتيش •

ولم تكن معاملة الانكليز لفرنسا - بهذا الصدد أفضل من معاملتهم للدولة العثمانية • فقد اقترح (فانتانيه) قنصل فرنسا فى بومباى على حكومته ارسال وحدتين بحريتين ترابط احدهما عند مدخل الخليج العربى والاخرى عند باب المنذب •

فرفضت فرنسا اقتراحه معللة رفضها بسببين :

الاول : لانها تعارض خطة بريطانيا أصلا ولا تقبل بها •

الثانى : لكى لا تتراجع عن رأيها الاول فى معارضة عملية التفتيش على اعتبار أنها عملية سياسية لا علاقة لها بالمبادئ أو المثل • ولكى تستطيع الحكومة الانكليزية القضاء على أسطول عمان وأساطيل بقية القبائل العربية الساحلية وتدير سفن المشيخات المطلة على الخليج العربى • أو مصادرتها هذه الحجة أو تلك • فقد تشددت فى استعمال هذا الاسلوب الشاذ ، وكانت تصدر السفن

مهما كان نوع البضائع التى تحملها ، بحجة أنها تحمل رقيقا سواء
أكانت تحمل رقيقا حقا أم لم تكن . . لأن الغرض الاول ليس محاربة
الرقيق بل مصادرة السفن العربية .

ان المادة الثانية من معاهدة أكتوبر ١٨٤٥ مثلا : أباحت مصادرة
السفينة التى تحمل رقيقا . فاستخدمت البحرية الانكليزية هذه
المادة فى جميع الحالات ، متسترة وراءها لاختفاء أعمالها الاجرامية
التى أقل ما توصف به أنها كانت أعمال لصوصية وقرصنة .

كما كان البرلمان الانكليزى قد أصدر فى سبتمبر ١٨٤٨ قانونا
يمنح للبحارة الذين يقبضون على سفينة كهذه مكافأة نقدية مقدارها
خمس جنيهاً عن كل رقيق كما يمنح ٣٠ شلن عن كل طن حمولة
للسفينة سواء أكانت تحمل بضاعة ما أم تكن تحمل شيئا آخر .

وكان الغرض من وضع هذا القانون واضحا ، وهو تشجيع البحارة
وربابة السفن الانكليز على القرصنة والعدوان . . طمعا فى هذه
المكافآت ومصادرة السفن العربية بدون سبب . . لأن الغرض
هو مصادرتها ليس الا . .

وقد دفعت المكافآت المغربية فعلا لربابة السفن الانكليز - للاعتداء
على سفن عمان وسواحل الخليج العربى ومصادرتها حتى ولو لم تكن
تحمل رقيقا . وذلك لمجرد اتهامها دون حق ، أو لمجرد وجود عامل
ملون أو زنجى بين بحارتها .

وقد اعترف الانكليز بهذا السلوك اللصوصى الغادر . . وأقروا
بأنهم كانوا كثيرا ما يعتدون على السفن العربية للوصول الى أغراضهم
الثمينة المبيتة .

وهكذا كانت افتراءاتهم تحقق لهم هدفين :

أولا : مصادرة السفن واضعاف بحرية عمان والبحرية العربية عامة

ثانيا : اتخاذ مخالفة معاهدة ١٨٤٥ ذريعة للتدخل فى شئون

عمان والمشيعات أكثر فأكثر . . وهذا ما كان يحصل باستمرار .

الفصل الثالث عشر

سياسة تدمير الأسطول العربى (١)

بلغت منافسة الاساطيل التجارية العربية لأسطول شركة الهند
الشرقية وتجارها حدا من الخطورة ، دفع بريطانيا للتفكير فى نفوذ
يدها من السواحل العربية فى أول الامر ، والتخلى عن تجارة المنطقة
والاكتفاء بالهند .

لقد قارنت انكلترا بين حسابى الارباح والخسائر فكتشفت أن
بقاءها فى المنطقة لا بد أن يجر عليها مصاعب لا قبل لها بها ، لولا
أن تعدلت هذه الحسابات بتبديل الظروف .
قال كرزنر ما خلاصته :

« ان ضعف النفوذ الانكليزى فى الخليج والمنافسة الضارية ومقاومة
السكان الوطنيين أدت الى أن تفكر شركة الهند الشرقية بقطع صلاتها
التجارية به . »

ولكن التبدلات السياسية من جهة ، وازدياد أهمية الهند من جهة
أخرى ، ومضاعفة الارباح المسلموبة منها ، وتحولها الى خزان طبيعى
لتموين انكلتره ، أو الى « دجاجة ذات بيض ذهبى » على حد تعبير أحد
المؤرخين - من جهة ثالثة ، دفع بريطانيا للالتفات الى الخليج العربى
وعمان والاهتمام بالمنطقة أكثر من ذى قبل .

يقابل ذلك ، أن رضوخ سلاطين مسقط المهين لم يكن يأتلف - فى
الحقيقة - مع عظمة عمان ولا مع ضخامة أساطيلها ، أو قوة شكيمة
قبائلها . ولكن سلاطين مسقط لم يكونوا يمثلون هذه العظمة ،
وبالتالى لم يكن خضوعهم ليوثر على الوضع الحقوقى أو السياسى أو
العسكرى لعمان أو لقبائلها . فكان هم بريطانيا منصبا على إزالة
هذه العقبة من سبيلها بالقضاء على الاسطول العربى مصدر اعتزاز
المنطقة وقوتها . وبذلك يتم للانكليز اخضاع القبائل العربية الثائرة
واذلالها ، بصرف النظر عن مواقف سلاطين مسقط .

ان رضوخ سلاطين مسقط للانكليز ، وارتباطاتهم المتتالية معهم ،

(١) لاحظ الخريطة ص ١٢٧

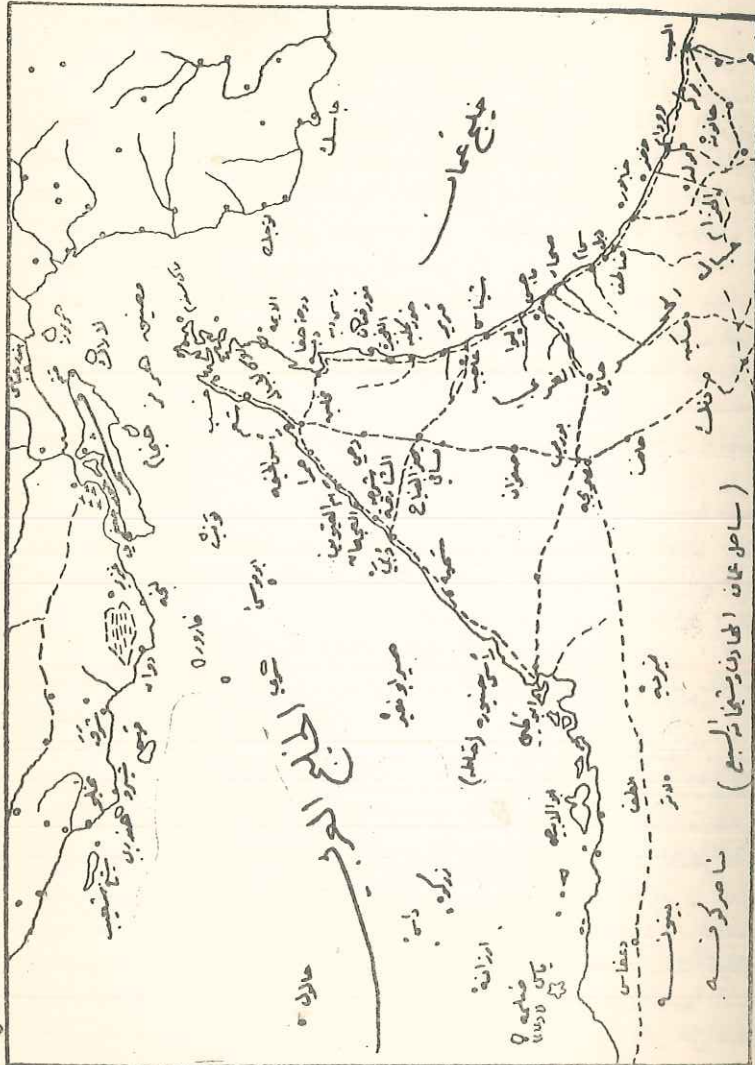
لم تلزم عمان الداخلية ولا ألزمت القبائل أو سواحل الهدنة ، وإنما ألزمت سلطان مسقط والمنطقة الساحلية الضيقة التابعة له فقط .
لذلك لم تقم القبائل وزنا لارتباطات مسقط وتعهداتها . بل ثابرت على منهجها الخاص ، في مقاومة الانكليز والهجوم على سفنهم ، وتهديد مواصلات امبراطوريتهم . وكيل الصاع صاعين لاعمال التحرش أو الاعتداءات التي كانت تتعرض لها السفن العربية من الاسطول الانكليزي .

كانت بريطانيا تدرك أن تعاقدها مع سلطان مسقط لا يلزم عمان الداخلية كما ولا يلزم سواحل الهدنة ولا القبائل العربية البحرية كقبائل الجواسم الباسلة . الا أن بريطانيا - رغم ذلك - تدرعت باتفاقها مع مسقط ، وأخذت تشن بموافقتها ، ومعها ، الغارات المشتركة لاختضاع القبائل العربية وتدمير معاقلها .

قبائل الجواسم :

كانت قبائل الجواسم وحلفاؤها ، يقطنون سواحل عمان الشمالية الغربية - سواحل الهدنة - . ولسواحل الهدنة أهميتها ، فهي تمتد أكثر من ٣٠٠ ميلا من حدود قطر حتى منطقة الكلبة . ويقطن الى جوار الجواسم قبائل أخرى من أهمها (بنى ياسى) وبعض (بنى بو على) .

والجواسم قبائل عربية قديمة يطلق عليها اسم (القواسم) أحيانا نزحت - على الغالب - من العراق . وسكنت الساحل العماني فكانت تابعة لائمة عمان فى كل شيء . الا أن الجواسم ما لبثوا أن استقلوا عن عمان ، واستأثروا بحكم رأس الحيمة ، بزعماء الشيخ رحمة بن مطر ، على اثر سقوط أسرة اليعاربة وتفرق شمل عمان وضعف الامامة فيها . فلما ظهرت الدعوة الوهابية ، استجاب الجواسم لها وأصبحوا من جملة حلفائها فى منطقة الظاهرة فى عمان . على أمل أن يتقوا بها غارات الانكليز من جهة ، وأن يعززوا انفصالهم عن عمان واستئثارهم بالحكم فى رأس الحيمة من الجهة الثانية . ولكن قبائل الجواسم لم تستطع اتقاء الغارات الانكليزية . فقد اشتدت عليها هذه الغارات . ولم يقدم لها الوهابيون تلك المعونة التي كانت تحلم بها .



خريطة تبين موطن الاسطول العربى (سواحل عمان الشمالية الغربية)

لقد أفلقت القبائل العربية الساحلية بريطانيا ، أكثر مما أقلقتها
اية منطقة أخرى في الخليج العربي .

فقد امتازت هذه القبائل بالشجاعة والصلابة وحب المغامرة .
وظل الملاحون العرب الذين ينتمون اليها - على مدى ثلاثة قرون -
أنشط الملاحين في المحيط الهندي . والبحر العربي والخليج العربي .
وقد اشتد خطر هؤلاء على أسطول شركة الهند الشرقية الانكليزية
حينما أخذت السفن الانكليزية تتحرش بهم وتقرب من سواحلهم
وتعترض لسفنهم وترفض دفع الرسوم المتفق عليها عند التجول في
مناطق نفوذهم أو في مياههم الإقليمية .

وقد انقلبت المناوشات والتحرشات الى معارك وحروب وغارات
مفاجئة . فكم من معركة بحرية ناجحة خاضوها ضد أسطول شركة
الهند . وكم من مرة أسروا السفن الانكليزية وصادروها أو دمروا
بعضها نتيجة عدوانها . حتى أن حاكم بومباي الانكليزي استجار
منهم بحكومته . . وشكى من أن سفن الجواسم تلحق أحيانا بالسفن
الانكليزية حتى شواطئ الهند ذاتها فتتغلب عليها .

وان من يطلع على ما كتبه موظفو شركة الهند ، ولا سيما سجل
أعمال الاسطول الانكليزي في الخليج وبحر العرب وبحر عمان ، لابد
أن يملكه الإعجاب بالمقاومة الباسلة التي أبدتها أولئك الملاحون
البواسل وأن يتولاه العجب من عنف المعارك التي خاضوها ، ومن
روعة البطولات التي سيطروها . ضد أساطيل العدو المغيرة ، لا على
شواطئهم العربية فحسب بل على الشواطئ المعادية ذاتها في سواحل
الهند وأفريقيا والبحر الأحمر .

ولكن انكثرت استطاعت أن تميل بكفة النصر الى جانبها ، منذ
مطلع القرن التاسع عشر ، وأخذت - نتيجة تعاونها مع سلطان
مسقط الخائن - تنزل الحسائر بقبائل الجواسم . ففي سنة ١٨٠٥
أنزلت أولى ضرباتها المهمة بهم . ولكن خسارة الجواسم للمعركة لم
تقض عليهم . فاستمرت المعارك سنة أخرى ، جال الملاحون العرب
فيها عدة جولات موفقة . ولكنهم لم يستطيعوا الصمود . فالسفن
الانكليزية قد تطورت خلال القرنين الاخيرين فأصبحت سفنا تجارية
ضخمة مزودة بأحدث الاسلحة وأضخمها . في حين ظلت السفن
العربية محتفظة بأسلوبها القديم وقوتها القديمة . فلم يكن من المعقول

ولا الممكن أن تصمد أكثر مما صمدت . هذا من جهة . ومن الجهة
الأخرى فإن الاساطيل العربية لم تكن تؤلف أسطولا واحدا ، بل
كان كل أسطول يتبع القبيلة التي تملكه . فلم يكن يشترك في
المعارك الا قسم صغير منه . بينما تبقى أساطيل القبائل الأخرى
متفرجة ، حتى يأتي دورها . . فيتم لبريطانيا التغلب على القبائل
متفرقة . . الواحدة بعد الأخرى .

لقد اعتاد الانكليز - منذ زمن طويل - على مداومة أعدائهم الواحد
بعد الآخر . ولكي يتم لهم ذلك ، كانوا يبثون الفرقة والتشتت بين
هؤلاء الخصوم قبل اعلان الحرب عليهم . وهذا ما جرى في سواحل
عمان الى حد ما . وفي بعض الظروف على الأقل .

ولئن كانت المعارك الضارية بين القبائل العربية وبين الانكليز
متفرقة متباعدة ، الا أنها كانت ذات طبيعة واحدة . فأسبابها كانت
واحدة . وأغراض الانكليز من شنّها واحدة أيضا .

وهكذا فإن معارك الجواسم والبنى بو على وغيرهما من القبائل ضد
أسطول شركة الهند وضد جيوش الانكليز البرية لم تكن أعمال
قرصنة أو لصوصية . وانما كانت حربا دفاعية مقدسية . بدأها
الانكليز أنفسهم ، بتحرشاتهم ، وتدخلهم في شؤون السواحل
العربية ورفضهم دفع الضرائب والرسوم الطبيعية المتفق على دفعها
مع الشركة حين دخول سفنها الى الموانئ العربية .

كانت شركة الهند الشرقية قد عقدت معهم اتفاقيات تدفع بموجبها
رسوما خاصة لقاء تجول سفنها في المياه العربية . ولكنها ما لبثت
أن رفضت تنفيذ هذه العقود . فكان من البديهي أن يدافع الجواسم
عن مياههم وعن حرمة الاتفاقيات التي عقدت معهم .

لم تكن القضية - بالنسبة لبريطانيا - قضية رسوم أو ضرائب .
وانما كانت الحشية من قوة أساطيل العرب وخاصة أسطول الجواسم
وايقاف منافستها التجارية للتجارة البريطانية ، وإزالة العقبات
المحتملة من طريق الامبراطورية . فاخلاق الانكليز المعاذير والاساليب
لمحاربة الاساطيل العربية ومن ثم تدميرها والقضاء على أخطارها
المحتملة في المستقبل .

هكذا بدأت الحروب البحرية والبرية بين انكثرتا والقبائل العربية

فاستمرت قرنين كاملين • وكانت مياديينها تمتد من شواطئ الهند حتى شواطئ الخليج العربي •

لقد رضخ الجواسم للقوة القاهرة - حين أدركوا أن المقاومة لم تعد تجدى - وأن أسلحة الانكليز أشد فتكا من أسلحتهم ، فوقعوا على الاتفاقيات التي طلب منهم أن يوقعوا عليها سنة ١٨٠٦ • وقد اشترط الانكليز عليهم في هذه الاتفاقيات احترام راية الشركة وعدم التعرض لسفنها قبل أى شيء آخر •

كان الجواسم يعتقدون أن الاتفاقية مجموعة من الحلول الصادقة التي وضعت لتحسم نزاعا قائما بين ندين • ولتضع قواعد جديدة للمعاملة السلمية بين شعبين متساويين • فى حين كان الانكليز يعتبرونها مجرد خطوة أولية تساعد على تحقيق أهدافهم الأخرى • وكانوا لا يعتبرون الجواسم أندادا لهم ، بل ولم يكن ليدور فى خلداهم أن يسمحوا لسلطنتهم أو لاساطيلهم أو لتجارتهم بالبقاء •

كان الهدف الحقيقي الذى رسموه هو أن يدمروا أساطيلهم وأن يهدموا موانئهم وأن يستأصلوا شأفتهم من المنطقة ، وأن يحولوا الباقين منهم الى عبيد • يخدمون السلطة الانكليزية • ويسيروا فى ركابها أنى سارت بدون اعتراض •

وهكذا كان من البديهي أن يدب الخلاف بين الفريقين على تفسير الاتفاقية فور توقيعها • فقد أبى الجواسم تنفيذها ، حالما اكتشفوا مرامي الانكليز وأهدافهم البعيدة • وتبين لهم خطل أسلوبهم السابق فى المقاومة المتفرقة المشتتة • وأدركوا أن ضرورات الدفاع - قبل أى سبب آخر - تدعوهم لتوحيد جهودهم مع بقية القبائل والمدن على السواحل المجاورة القريبة والبعيدة • على الساحل وفى الداخل ضد العدو المشترك • حتى ولو اضطروا لاستعمال الشدة مع من لا يدرك أهمية توحيد الكفاح • فمتنوا علاقاتهم بالواهيين من جهة واتصلوا بالقبائل على سواحل الخليج وتبادلوا المعونة مع المكافحين منها • ومنتوا العلاقات القديمة بينهم وبين قبائل شط العرب وعربستان والبحرين وقطر ، كما كان شأنهم منذ نصف قرن مضى أو يزيد • ولاحقوا التدخل الاجنبى فيها الى جانب أهلها •

وهكذا مرت على المنطقة فترة استمرت ١٢ عاما كانت مليئة بالاحداث الكبرى • فترة حرب جذرية شاملة بين القبائل العربية

الناثرة هنا وهناك وبين التدخل الاجنبى بشتى صوره • وخاصة الانكليزى •

ولئن انتهى هذا الكفاح البطولى بانتصار الاستعمار الانكليزى وفرض معاهدات ١٨٢٠ الا أنه كشف عن قوة عربية كامنة وينبوع للبطولات والكفاح الثورى لا ينضب ولا يغلب اذا ما أتيح له التنظيم والتسليح •

كان الهم الاول للجواسم أن لا يمتد النفوذ الانكليزى الى المناطق المجاورة ذات الموقع العسكرى (السوقى) الخطير • لأن الاستيلاء على مثل هذه النقاط لا بد أن يؤثر على نتيجة المعركة • فكانوا يحاربون الانكليز فى مناطقهم ولا يغفلون عن مراقبة توسع الانكليز بالمناطق الأخرى •

ولما كانت جزائر البحرين ذات موقع حربى خطير ، وكان جنود مسقط المتحالفين مع الانكليز قد نزلوا فيها بمعرفة الاسطول البريطانى وبجمانيته وبقصد مساعدتهم وسند ظهورهم • فقد هاجم الجواسم البحرين وطردها جنود مسقط منها ، فجن جنون الانكليز ، وصاروا يرجفون أن الجواسم بدأوا يهاجمون اخوانهم العرب • وهم يريدون احتلال البحرين ونهبها • الا أن ذلك لم يؤثر فى مغنويات الجواسم ولا فى مغنويات شعب البحرين العربى الذى وقف الى جانبهم ضد الغزاة الانكليز وصنائعهم جنود مسقط •

وفى سنة ١٨٠٩ ، أعد البريطانيون - بمعرفة سلطان مسقط - حملة كبيرة ضد قبائل سواحل الهدنة ، متهمين اياهم بأنهم آلات فى يد الوهابيين وان أعمال القرصنة مدفوعة من أولئك الذين يحكمون فى الرياض • وان غرض الحملة هو تأديبى ليس الا • والحقيقة التى انكشفت - بعد نهاية الحملة - أن الغرض كان التدمير والابادة لا التأديب • فالحرق والاغراق والتهديم والتقتيل العام ، كانت أبسط التدابير التى لجأ اليها الغزاة الانكليز وأعوانهم الحونة •

وقد ظهر كذب القادة الانكليز وافتراءاتهم بعد زمن من حملاتهم الاجرامية واعترف بهذا الكذب والافتراء ، كبار مؤرخيهم والمسؤولين منهم •

قال المؤرخ البريطانى الرسمى : لوريمر :

«عقب استقرار الوهابيين فى البريمى ، زادت القرصنة واعمال العصيان فى البحر ، وقد عزى ذلك - فى الهند بصفة رئيسية - الى نفوذهم ، غير ان الدراسة المجردة من العاطفة للحقائق ، بعد انقضاء أكثر من مائة سنة ، لا تؤكد - بأى حال - رأى المعاصر المتطرف ، القائل بأن القواسم كانوا ، فى الحوادث التى وقعت الان ، مجرد آلات لارادة لها فى أيدي الوهابيين ، فان الصفات التى فطر عليها القواسم ، كما ظهرت فى مسلكهم فى سنوات (١٧٧٨ و ١٧٩٧) وان سياسة حكومة بومبى .. تغنى عن هذا البحث ، عن أى شرح آخر متعلق بالنفوذ الوهابى ، للاحداث التى كانت تعمل .. وينبغى أن نذكر بأن الجبر من قبل الوهابيين ، قد هيا عذرا طيبا لا يمكن التحقق منه ، لاعمال لا يمكن تبريرها بحال» .

وتبدو خيانة سلطان مسقط فى هذه الحادثة العدوانية الرهيبة واضحة .. من كتاب (جوناثان دنكن) ، حاكم بومبى الى حاكم مسقط فى سنة ١٨٠٩ الذى يقول له فيه :

«اننى أعتمد مطمئنا على عظمتكم لتقديموا كل مساعدة ممكنة لتحقيق أهداف هذه الحملة التى تم القيام بها أولا ، وبالتأكيد بناء على اشارة من عظمتكم» .

هاجمت الحملة رأس الخيمة ، فنهبت وسلبت ودمرت فى يوم واحد كل ما وصلت اليه أيدي جنودها ، قال (ريمر) : ان كل واحد من الانكليز ، قد زادت ثروته فى ذلك اليوم مالا يقل عن (٣٠٧) جنيهها ، كما دمرت مائة سفينة عربية فى الميناء ثم هربت الحملة بعد العدوان بيوم واحد ، مخلقة وراءها الدمار .. ولم يكن عملها هذا - بحذ ذاته - الا نوعا من أنواع القرصنة المتعمدة التى زعمت أن العناية قد أرسلتها لمحاربتها ، وكانت الحملة فى نوفمبر ١٨٠٩

وفى أوائل يناير ١٨١٠ هاجمت القوة الانكليزية بذاتها ، وبناء على الحاح حاكم مسقط ميناء شناص على ساحل عمان لنفس الغرض .. فأنزلت فيه خسائر ماثلة

وفى عام ١٨١٤ اشترك حاكم مسقط وزعيم بنى ياس (فى أبوظبى) بعمليات تدميرية ماثلة ضد رأس الخيمة تحت حماية الاسطول البريطانى بحجة أن القواسم قد لموا شملهم وأعادوا قوة اسطولهم ، وبدؤوا يعملون لتكوين حلف من القبائل ضد الانكليز

وفى عام ١٨٢٠ اضطرت الجواسم - تحت ثقل هذه الضربات - لقبول تعديل الاتفاقيات السابقة والقبول بمعاهدة جديدة مع إنجلترا نال فيها الانكليز ضمانات أكبر .. وحقوقا أكثر سعة من ذى قبل ثم اتخذ الانكليز من هذه المعاهدة نموذجا لجميع المعاهدات التى أجبروا رؤساء القبائل وأمراء المشيخات وامارات الخليج العربى على القبول بها والتوقيع على نسخ ماثلة لها تقريبا .

كان الانكليز ، كلما فرغوا من اخضاع قبيلة أو شيخ أجبروه على توقيع نسخة ماثلة للمعاهدة المذكورة ، فلم تمض سنوات قليلة أخرى حتى أخضعوا جميع السواحل وفرضوا عليهم القيود بالقوة القاهرة ، ولم يخضع الجواسم فقط .. بل خضعت قبائل كثيرة غيرها من القبائل الساحلية .

والجواسم بمناهضتهم للنفوذ الانكليزى لم يكونوا أعداء لهذا النفوذ بالذات ، بل حاربوا كل تدخل أجنبى آخر ، قبل عام ١٨٢٠ وبعده ، ولا أدل على ذلك من أن فارس عندما أرادت الاستعانة بأسطولهم فى عام ١٨٢٣ ، ودعت شيخهم سلطان بن صقر للمفاوضة معها فى بندر عباس ، امتنع الشيخ سلطان عن مفاوضة فارس ، أو تأييد منهجها الاستعمارى بأبأ .. كما رفض الجواسم أشد العروض الأخرى اغراء .

ومن الجدير بالذكر ، أن توقيع معاهدة ١٨٢٠ لم يحل المشكلة بالطبع ولم يقض على النزاع بالمرّة .. وكل ما فعله أنه حول الحرب الشاملة المنظمة قبل ١٨٢٠ الى حروب متفرقة مشتتة بعد عام ١٨٢٠ والسبب فى ذلك يعود الى عوامل رئيسية منها :

أولا : لان أهداف المعاهدات كانت تعنى أشياء مختلفة بالنسبة لاختلاف الاطراف كما سبق وشرحنا ذلك قبل قليل ، فكانت بمثابة المخدر يوقف الاحساس بالآلم فترة قصيرة .. ولكنه لا يزيله ، بل يعيق آثاره .. ويضاعف أخطاره .

ثانيا : لان سبب الخلاف الحقيقي وهو التدخل الاجنبى .. كان يشتد ويتضاعف بعد كل معاهدة أو اتفاقية ، وبالتالي كانت النعمة تشتد والعداوة تتأجج ، وتأخذ المناهضة أشكالا جديدة .. تتسرب فى مجارى جديدة .. ليس الا ..

ثالثا : لان انكسار قبيلة ما فى معركة من المعارك لم يكن كافيا للقضاء عليها أو اخفاء قوتها ، فالقبائل تشتت بعد الهزيمة عادة بسرعة فائقة .. ولكنها تعود للتلاحم بعد انتهاء الخطر بنفس السرعة والعزم ، هذا دين القبائل .. منذ عهد بعيد .. منذ معركة ذى قار حتى اليوم ، فالصحراء مأمنا الطبيعية .. تقوم دائما وراء ظهرها ليحميها وكان هذا يدفعها - بصورة مستمرة لمعاودة الكفاح .. كلما وجدت فرصة سانحة .

بل كان يظهر - دائما - فى ميدان الكفاح ضد النفوذ الانكليزى قبائل جديدة ، لاعهد للانكليز بها .. تضمها الأخوة .. والحلف .. والتلاحم القبلى المعروف جيدا فى التاريخ الى جانب أبناء جنسها . فكلما تأزمت الامور .. وجدت على السواحل العربية أحداث جديدة ، وبدأت الاضطرابات تلعب دورها ، كان شعار مقاومة النفوذ الانكليزى .. يرتفع عاليا .. ويدفع تحت لوائه عشرات من آلاف المناهضين والثائرين من القبائل العربية القاطنة على هذه السواحل المكتوبة بمآسى المستعمرين .

هذا من جهة ومن جهة ثانية فان فشل سعيد حاكم مسقط فى حملته على البحرين وفى تحقيق مطامعه الاخرى على سواحل الخليج ولاسيما بعد سنة ١٨٢٢ شجع كثيرا من القبائل للثورة عليه وعلى أسباده الانكليز .

وكانت قبائل بنى بوعلى من أول من رفع لواء هذه الثورة فى منطقة صحار .. ثم قادها ببسالة نادرة .

يضاف الى ذلك أن معظم القبائل المجاورة ، كانت غاضبة على سعيد لخنوعه الذى لاحدود له ، أمام النفوذ الاجنبى المعادى ، فلم تعترف له بسيادة عليها قط .. وكان هذا الشعور مما سهل عليها أشهر الحرب عليه او على السفن الانكليزية المؤيدة له .

ان أية قبيلة من هذه القبائل .. التى تقطن فى المنطقة التابعة لمسقط .. بل فى المناطق البعيدة كانت تجد أن من واجبها محاربتها والقضاء عليه ، ولم تجد غضاضة من وقوفها مع القبائل الثائرة ضده وكان أكبر ما تهدف اليه فى البحر قطع طريق السفن الانكليزية والاستيلاء على أية سفينة منها تقترب من الشواطىء التى تقطنها .. او تدميرها على الاقل .

ففى سنة ١٨٣٤ هاجم (بنو يلهى) طرادا بريطانيا وأتلفوه . وكان بنو بوعلى قد أنزلوا بالانكليز هزيمة شنيعة فى عام ١٨٢٠ أربكت الحكومة الانكليزية فى الهند وأذلتها الى درجة أن حاكم مسقط الاجير أصبح يشنع على الجنود الانكليز ويتهمهم بالخين . قال مؤرخ البيت الحاكم فى مسقط عن هذه الحملة .

« فلما رأى السيد (حاكم مسقط) أنفلال شوكة الانجرز (الانكليز) ورقة عزائمهم ، وقلة من ثبت معه من قومه أمر بالمسير الى مسقط . أى انه أمر الجنود بالنكوص والهزيمة .

وقد كان للهزيمة رد فعل كبير على الانكليز .. من جهة .. كما تركت أثرها المشجع على القبائل العربية الثائرة من جهة أخرى . فهى فضلا عن بعثها للعزائم والهمم فى قلوب المقاتلين العرب ، من عربستان حتى جنوب عمان ، فانها شتت أعوان سلطان مسقط من حوله وبعثت فى نفوسهم الخوف والمهانة .. كما أجبرت الانكليز على الاعتراف بالهزيمة .. وتحرقى العوامل التى سببت وقوعها . يقول اللفتننت أورمسبى عن رد فعل هذه الهزيمة لدى الحكومة الانكليزية فى الهند ما يلى :

سكانها بكاملهم من الوجود ، منهم قبائل خزعى من سكان عربستان والحيوزة العربية الخالصة التى مازالت تعيش وفق النظم العشائرية القديمة .

قبائل كعب والمجيسن :

كانت قبائل كعب قد نزحت الى عربستان فى أواسط القرن الثامن عشر ، واستفادت من انشغال ايران بالمنازعات الداخلية التى قامت من أجل العرش بعد وفاة نادرشاه ، فاستولت على منطقة واسعة من ايران الجنوبية الغربية وجعلت مركزها الفلاحية ، فلما استقرت الامور - نسبيًا - بفارس ، وبدأت مقاومة الحكومة الايرانية للقبائل العربية اضطرت كعب للنزوح - تحت الضغط الشديد - الى الضفة الغربية من شط العرب .

ولكن قوتها أخذت فى النمو نمواً سريعاً فعادت للامتداد نحو الشرق حتى ان نموها أفلق الأتراك والاييرانيين فشرعوا فى مقاومتها ، واستعانوا بشركة الهند الشرقية عليها ، ولكن الحملات المشتركة (البرية والبحرية) التى اشترك فيها الايرانيون والأتراك والانكليز عجزت عن اخضاع قبائل كعب وفشلت فى مساعيها لتفتيت القبيلة أو تدمير أسطولها الناشئ ، بل على العكس ، أنزلت قبيلة كعب خسائر فادحة بجميع الأطراف ، يساعدها على ذلك طبيعة الارض التى تعيش فيها لقد شجعت الانتصارات المتوالية كعب فعادت الى عربستان . . واستولت عليها بكاملها وبسطت نفوذها فى أرجائها المختلفة مرة أخرى .

وفى سنة ١٨١٢ نزحت قبيلة (المجيسن) الى المنطقة ذاتها ، وقطنت الى جوار بنى كعب ، عند مصب نهر قارون ، فأسس شيخها مدينة المحمرة من بقايا مدينة قديمة كانت قائمة هناك قبل ست قرون . كان الانكليز - فى هذه الاثناء قد ثبتوا أقداً معهم فى العراق . . فقد حصلوا على حق احتكار النقل النهري فى جنوب العراق من الحكومة العثمانية ، وكانت قد انتشرت تجارتهم فى المنطقة فأقاموا لهم وكالة فى البصرة وأخرى فى بغداد ، بل لقد سمح لهم أن يقيموا قوة عسكرية دائمة فى قنصليتهم فى بغداد ، فلم يعجبهم نمو قبائل كعب وصمموا على التخلص منها ، ومنع سيطرتها على المنطقة الحساسة التى تمر منها طرقهم المائية وهى شط العرب ، وكعادتهم فى مثل هذه

« أبدت دهشة غير ضئيلة فى الهند لدى وصول معلومات عن حدوث هذه الكارثة ، أن أحداث حروبنا الهندية ليس فيها مثل هذه الكارثة . كلا فلو راجعنا تاريخ الحملات الهندية لوجدنا البريطانيين انتصروا فى غالب الاحيان على قوات تفوقهم عدداً ، أما هنا فقواتنا التى أحضرت للعمل تتساوى تقريباً فى العدد مع القبيلة المعادية بالاضافة الى مساعدات قوات الامام »

الفصل الرابع عشر

نهوض قبائل فى الشمال يساند النهوض القبائلى فى الجنوب

لقد رافق النهوض القبائلى فى الجنوب نهوض قبائل آخر فى شمال الخليج العرب ، لا يقل أهمية عنه . فمنذ أواسط القرن الثامن عشر ، وفى الوقت الذى اشتدت فيه أخطار أساطيل سواحل عمان على الانكليز قام الاتحاد القبائلى فى الشمال (فى عربستان وشط العرب) بدور مماثل . . وقد قربت وحدة الجنس بين الاتحادين فقامت علاقات وتبودلت المساعدات التى سنكشف عنها فى بحثنا التالى .

عربستان :

تقع بلاد عربستان الخصيبة ، الغنية بتربتها وثرواتها المعدنية الثمينة - البترول - الى الشرق من شط العرب ، فى قمة الخليج العربى الشمالية الشرقية ، وهى تتألف من أراضى طموية واسعة ، تخترقها جداول ومجارى مائية كثيرة العدد ، يتفرع بعضها من شط العرب ، ويتفرع البعض الآخر من نهر قارون ، وهى لذلك منطقة مزرعية واسعة . . ذات اهرار ومستنقعات وجزر لا حصر لها . والمنطقة - بصورة عامة - جزء طبيعى من وادى الرافدين ، ومن دلنا شط العرب ومجرى نهر قارون الأدنى ، تنتهى فى الشرق بأرض متموجة هى السفوح الغربية لجبال يشتهر الايرانية - الحد الطبيعى الفاصل بين بلاد العرب وايران ، فهى بهذه الصفة جزء أساسى من الوطن العربى لا يتجزأ - جغرافياً وتاريخياً وبشرى - ومهما حاولت الحكومة الايرانية - التى تحتلها اليوم - انكار هذه الحقيقة الطبيعية وطمس معالم عروبته ، فانها أعجز من أن تمحو

الظروف لجأوا الى نشر العداء والفتنة بين القبائل .. وخاصة بين المحيسن وكعب ، فوقفوا الى جانب المحيسن في نزاعها مع كعب وشجعوها .. وبعثوا في نفس شيوخها الطمع في طرد كعب من المنطقة والحلول محلها .. وقد استجاب بعض شيوخ الى هذه الفتنة ووقفوا بدورهم الى جانب الانكليز .. ولكن بدون جدوى .

قدم النفوذ العربي في المنطقة :

ان النفوذ الكبير الذي وطدته القبائل العربية في منطقة عربستان والمحمرة والحريزة وشط العرب لم يكن جديدا ، ولم يتم في فترة قصيرة الامد ، ولا لمدة مؤقتة عابرة كما قد يبدو من كلامنا .. للوهلة الاولى ، بل كان استمرارا لهجرة عربية متواصلة قديمة قدم الاقوام السامية في العراق .. ولكن النشاط القبائي .. كان يغمر العراق .. بين فترة وأخرى ، وقد عين الزمن بين الفترتين بعدة قرون والموجة الاخيرة التي تشير اليها .. كانت قد بدأت منذ ألف عام مضى .. وما هجرة كعب والمحيسن الا صفحة أخيرة من صفحات هذه الموجة ..

يقول المؤرخ الانكليزي لونغيريك :

« في أراضي عربستان الزراعية المنبسطة ، كانت تستقر قبيلة بعد أخرى من زراع الرز ومربي الجاموس .. فكانت تمتلك الارض وتسيطر على سبل المنطقة ، وتفرض الضرائب على المواصلات النهرية دون معارض على حدود طويلة أفلقت - أخيرا - القوات العظيمة في العالم . »

لقد أنشأت القبائل العربية التي قدمت الى المنطقة وحدات سياسية شبه منظمة في أزمنة مختلفة غير محددة ، كان معظمها بعد سقوط اتابكي القرن الرابع عشر في خوزستان (عربستان) لاسيما وان منطقة (لورستان) الكبرى كانت قد تمزقت ، وتحولت الى حكومات عشائرية صغيرة ، منفصل بعضها عن بعض ، فقد كانت السنوات الاخيرة من القرن السادس عشر - في لورستان - سني ثورات واضطرابات وفتن ، أدت الى سقوط الاتابكيين ، وقد سقط آخر اتابكي في لورستان الصغرى (يشتكوه) بعد ان هوجم من قبل تيمورخان الاردلاني في عام ١٥٨٥ .

وهكذا .. لم يكن الكعبيون أو المحيسن آذن .. أول القبائل العربية

التي قدمت الى المنطقة بل انهم ، وجدوا فيها ، قبائل عربية قديمة أخرى قد سبقتهم .. وقد كونت قاعدة شعبية ذات جذور في المنطقة فانضمت الى القبائل الجديدة وانضوت تحت لوائها - بحكم تشابه المصالح ووحدة اللغة والجنس - وركزت نفوذها وجعلته أبديا .. لا مؤقتا .

واذن فان نهضة القبائل العربية الحديثة في المنطقة لم يكن حدثا طارئا او مؤقتا .. فالمنطقة كانت عربية خالصة منذ زمن طويل سابق وسرعان ما اندمج العرب الاقدمون بالعرب المحدثين .. مكونين وحدة قومية قوية لا تنفصم .. ولولا هذه الوحدة لما تمكنت هذه القبائل من حماية أنفسها ومن التغلب على ثلاثة حلفاء أقوى .. وعلى فرض جنسها ولقتها حتى اليوم .

والى الشمال قليلا من بني كعب .. كانت القبائل العربية قد وطدت - بدورها - منذ آلاف السنين أقدامها في المنطقة وشرعت في المدة الاخيرة ، تقيم اركان سلطنة عظيمة ، أفلقت الدولة العثمانية خلال القرون التالية ولعبت أدوارا شديدة الخطورة في تاريخ العراق والخليج العربي معا ، فقاومت النفوذ الاجنبي باصالة ووعى وصدق واستطاعت - بحكم هذا الوعى - أن تلتقى مع أمانى الشعب العربي في عمان والسواحل في أقصى الجنوب العربي متخطية الحواجز ، موحدة كفاحها ضد العدو المشترك .

ان هذه القبائل العربية الباسلة لم تخضع - في يوم من الايام - للدولة العثمانية ، أو لغيرها من الدول ، ومع أن أمير الحويزه كان أرسل سفارة خاصة الى السلطان سليمان القانوني الذي فتح العراق على سبيل المجاملة ودفعاً لشره .. فان اتباعه (البرمائيون - المزارعون البحارة) كانوا لا يألون جهدا في ازعاج الدولة العثمانية ومهاجمة مراكزها الرئيسية وانزال الضربة تلو الضربة بهذه المراكز ، وخاصة بالبصرة وشط العرب .. دون أن يعبأوا بأسطول الدولة العثمانية ، ولا بأساطيل حليفها ايران أو اساطيل حليفة الطرفين شركة الهند الشرقية الانكليزية ، فقد نشبت - فعلا - معارك بين القبائل العربية من جهة وبين أساطيل شركة الهند وحلفائها من الجهة الاخرى ، فكانت معظم هذه المعارك تنتهي بانتصار العرب ، حتى غدا نفوذ أمراء الحويزة

والقبائل العربية الاخرى الموزعة بين الاهوار والجزر والآجام الصعبة مطلقا لامنازع له .

ولادة الاتحاد القبلي :

لقد شهدت المنطقة ، في أوائل القرن السابع عشر ، ولادة اتحاد قبائلي قوى ، لامثيل له فيما مضى ، فكانت قبائل بنى مالك والاجود وبنى سعد ، ومئات الفروع القبلية الصغيرة التى تعيش فى كنفها أو حليفة لها قد كونت قوة هائلة يصعب التغلب عليها .

على أن هذه الجمهرة الكبيرة من البشر ، وأن كانت لاتحمل اسما عاما واحدا ذا طابع قومى حديث ، الا أن الرابطة الحقيقية التى كانت تجمعها على صعيد واحد . . . انما هى الرابطة القومية .

فوحدة اللغة ، وتشابه المعيشة ووحدة العادات والتقاليد والآمال المشتركة كانت حقائق مادية ملموسة . . . كافية لانشاء قواعد هذا التحالف ، وأرسائها على أسس سليمة ، بل ان هذا الاتحاد القبائلي قد هز تلك المنطقة وكان له تأثير بالغ الاهمية ، فقد عرقل الحركة الاستعمارية العالمية أكثر من قرن ، وخلق لها المصاعب والارتباكات لافى عربستان وشط العرب والعراق فحسب ، بل فى الخليج العربى والمحيط الهندى ايضا .

ولا أدل على ذلك من أن الوحدة القبائلية فى الشمال استطاعت بسهولة أن تكتشف هويتها - بصورة عفوية غير قاصدة - وأن تعثر على قواها الاحتياطية المساندة . . . وان تضع يدها بأيدى أصدقائها الحقيقيين . . . فانسجمت بسرعة فائقة . . . وفى زمن متقدم نسبيا مع معركة النضال التى قادها الجواسم المناهضة للنفوذ الاستعمارى الانكليزى ، رغم بعد الشقة بين منطقة الجواسم ومنطقة عربستان . فى حين انها لم تستطع قط - ولا بصورة من الصور . . . أو ظرف من الظروف - أن تنسجم مع مطامع الايرانيين وعنجهتهم . . . رغم قرب عربستان من ايران وملاصقتها لمنطقة نفوذ الشاه . . . ولا مع العثمانيين وغيرهم .

الاسطول العربى فى الشمال :

استطاع الكعبيون - نتيجة تعاونهم مع عرب السواحل فى عمان -

أن يبنوا لانفسهم أسطولا عربيا ضخما يحمى مناطقهم ، ويعرقل امتداد النفوذ الاجنبى ، بأشكاله الثلاثة : (الانكليزى والايرانى والعثمانى) فى بلادهم زمنا طويلا . ذلك لان الاسطول قد منح القبائل العربية قوة كبيرة .

فمن الامثلة الحية على مدى قوة هذه القبائل ، وعمق انسجامها مع قوى الجنوب . . . وضعف القوى الايرانية والعثمانية المتكتلة فى مقابلها :

الاميرال والمؤلف الشهير (سيدى على) الذى كان يخدم فى اسطول شركة الهند الشرقية الانكليزية ، كان قد زار البصرة ، فشاهد ماهو عليه الوالى العثمانى (مصطفى باشا) من ضعف ، أمام قوة القبائل العربية وعنوتها ، فصمم على انقاذه من هذه الورطة - على زعمه - واعانه بخمس سفن حربية انكليزية لمحاربة العرب أعداء الطرفين ، فى الأنهر المتفرعة من شط العرب وعربستان ، كما شجعه لتوجيه حملات منظمة ضدهم ، وقد صدع الوالى العثمانى (مصطفى) بأمر القائد الانكليزى . . . ولكن فشلت الحملات العدوانية بعد ان دفعت عددا كبيرا من رجالها ثمن هذه المغامرة .

ومما ذكره الاميرال (سيدى على) فى مؤلفه .

ان حكم الوالى لم يكن يتعدى خندق مدينة البصرة الا قليلا ، وان سكان الاهوار الجنوبية لم يظهر منهم مايدل على امكانية التعاقد معهم بصورة دائمة لمناعة مواقعهم وليسالتهم فى الدفاع عنها ، بل لم تكن مدينة البصرة - بذاتها - التى كانت مركز الولاية لتسلم ، فكانت تهدد كل يوم تقريبا بالغزو . . . أو تغذى فعلا ، وتنهب دار الحكومة ودور الموظفين فيها .

استقلال البصرة :

كانت تعديلات الاتراك فى البصرة تبلغ حد الوحشية أحيانا . . . وكان الموظفون العثمانيون يمثلون فيها دور السادة . . . ويعتبرون الرعية عبيدا ، على عادة الاتراك فى كل مكان حكموه . . . واذا كانت الاماكن الاخرى قد سكنت على تعديياتهم هذه . . . فان الروح القبائلية الثورية . . . ضد هذه الامور جعلت من الصعب دوام هذا الحال فى البصرة .

يقول السائح تافرنيه :

ويؤيده - فى ذلك - ماذكره الشيخ فتح الله الكعبى : فى كتابه (زاد المسافر) ما يلى :

« انه بلغ الامر فى البصرة ، ان السكان العرب لم يستطيعوا . . احتمال وجود الحماية الاجنبية فى القلعة » .

كانت الحماية تركية طبعاً . وكان السكان من العرب الذين تطمع لروح العشائرية حياتهم . . فهم لا يتحملون الاستعباد . بل ان روح الثورة على مثل تلك الاوضاع كانت مجبولة بدمهم . فكان الطرفان فى نزاع دائم . . وكان النزاع يتطور - فى أغلب الاحيان - الى معارك فى الشوارع . وبما ان الحماية المسلحة اقوى من الشعب الاعزل نسبياً . فان أعراب البادية وأفراد القبائل القاطنة فى الاهوار والمحيطه بالبصرة . . كانوا يهبون لنجدة أبناء جنسهم - سكان البصرة العرب ، أو لاسعافهم . . وكثيراً ما كانوا يحاصرون الباشا فى حصنه .

ولم تكن الحالة لتهدأ بسهولة . وكان الفريقان ، لا يتفقان على شيء . وممل الوالى (أيوب باشا) هذه الغزوات التى لا نهاية لها . فباع حكومة البصرة الى أحد تجارها المحبوبين من الجمهور . . والذى بادر الى دفع الثمن عن طيب خاطر وهو أربعون ألف قرشى ، وتسلم الحكم ، وسمى نفسه أمير البصرة .

وغادر الباشا ولايته - بعد ان تمت الصفقة - الى القسطنطينية حيث كان ينتظره حبل المشنقة فى ساعة وصوله .

لقد ازدهرت البصرة - حقاً - فى عهد استقلالها هذا ايما ازدهار . فاتسعت مبانيها وانتعش سكانها اقتصادياً ، وتخلصت من الغارات والفتن وسادها الامن والرخاء وأمها الادباء والعلماء والشعراء .

حتى ان السائح (غودينهو) وصفها بقوله :

« انها أعظم سوق تجارية فى هذه البحار » .

ولم يكن استقلال البصرة - طبعاً - الا ثمرة حية ، من ثمرات ذلك الاتحاد القبائلى . . وتلك الروح القومية العفوية التى سادت المنطقة ، وساعدتها على تقوية نفسها وعلى بناء أسطول حربى يحمى مسالكها وعلى توحيد أهدافها ومطامحها مع أهداف ومطامح القبائل الجنوبية فى سواحل عمان والتى تدور حول التخلص من حكم الاجنبى واجتثاث جذور النفوذ الانكليزى من المنطقة بكاملها .

معارك الكفاح الاخيرة :

لم تكن قبائل كعب أو الاتحاد القبائلى الشمالى ، ينسون ما تمثله القبائل العربية التى تقطن المنطقة الى جوارهم فى الشمال أو الشرق من قوة . . فكان يتجه هم كعب للتعاون مع بنى حمود من قبائل المنفق على أساس انها قوة احتياطية فى المعارك الحاسمة . وقد اشتركت هذه القبيلة عدة مرات مع كعب فى قتال الاتراك أو الهجوم على البصرة . . أو قتال الانكليز والايرائين .

بل وكان كثيراً ما يتفق الحلفاء الاجانب الثلاثة فيبادرون لمهاجمة التحالف القبائلى العربى ، بثلاثة جيوش اثنان بريان بحريان : تركى من الشمال وايرانى من الشرق . . وثالث بحرى هو الجيش الانكليزى من الجنوب .

ولهذا فقد استعرت المعارك منذ أواسط القرن الثامن عشر بشكل جدى ومتلاحق ولم تخف وطأتها الا بعد قرن من الزمن .

ففى سنة ١٧٤٧ كان بنو كعب ، قد بلغوا من القوة درجة أقلقت الدولة العثمانية وزعزعت مراكزها . . واقتلعت جذور بعضها فعلاً ، فكان والى بغداد ، المملوك (سليمان باشا أبو ليلة) يحاول عبثاً كسب ولائهم . مثله كمثل الايرانيين . . ولكن بنى كعب كانوا يحتقرون الفريقين الاتراك والفرس ويجانبونهم .

وفى سنة ١٧٥٠ كان رئيس بنى كعب الشيخ سليمان . . ذكياً شجاعاً نشيطاً ، فعزز أسطول القبيلة ، مستفيداً من خبرة عرب عمان ومساعدتهم . حتى أصبح الاسطول فى سنة ١٧٥٧ يضاهى الاسطول التركى ان لم يفقه .

فلما يئس الولاة العثمانيون ، من كسب ولاء كعب . . أخذوا يفكرون باستعمال القوة لاجسادهم . وفى عهد الوالى العثمانى (على باشا) تحول تفكيرهم هذا الى محاولة عملية . وبما ان الاتراك قد اكتشفوا من التجارب السابقة ضعفهم وعجزهم عن ان يحققوا مطلباً كبيراً كهذا بقواهم الخاصة مع وجود أسطول كعب . طلب الوالى المذكور من المقيم البريطانى معونة جديدة . . مع التعاون المطلق لدحر القبائل العربية ، مشيراً الى اتفاق مصلحة الفريقين . وقد وعد الوالى باسم الحكومة التركية ان يمنح للانكليز فى مقابل المعونة امتيازات مهمة . على أساس ان الاسطول البريطانى وحده قادر على دحر الاسطول

الكعبى على ان يساعده الاسطول العثمانى فى شط العرب وان يتولى الجيش التركى فى الوقت ذاته المعارك البرية .
فتم الاتفاق بعد ان شجعت الحكومة الانكليزية هذه الصفقة .
ولكنها اشتراطت ان يتم اخضاع قبائل الخزاعل أولا . ومن ثم يتولى الحلفاء (الاتراك والانكليز) اخضاع الكعبيين .

ووصلت الحملة المتفق عليها . وكانت برية بحرية . . . وتقدمت لاختضاع الخزاعل . . . تمشيا مع الخطة البريطانية المعروفة التى تقوم على ضرب القبائل الصغيرة أولا . . . بضربات قاصمة مخيفة . . . ثم التحول لضرب القبائل الكبرى . ان لم تكن الحشية من أمثال تلك الضربات القاصمة السابقة قد أخضعتها قبل وقوعها .

ولكن الحملة العدوانية المشتركة لم تعط ثمارها . بل انكسرت فى ربيع ١٧٦٤ أمام صمود الخزاعل وبسالة مقاومتهم . وعاد المهزومون الى قواعدهم يحملون معهم صدى كئيبيا لاهازيج النصر التى كانت ترددها القبائل العربية الظافرة .

ثم أعيدت الكرة فى عهد الوالى الجديد (عمر باشا) ١٧٦٥ ، بعد ان ادخل فى الحلف عنصرا جديدا فأصبح حلفا ثلاثيا بعد ان كان ثنائيا . هو العنصر الايرانى .

لقد استهوت الحملة ضد كعب بلاط ايران ووجدت فيها الفرصة الذهبية لاعادة النفوذ الايرانى لا الى عربستان فحسب بل الى سواحل ايران على الخليج العربى ، فدبر الوصى على عرش ايران (كريم خان) حملة مشتركة أخرى ضد كعب . تأزر فيها الانكليز والايروانيون والاتراك . فحددوا موعدا للمعركة وتواعدوا على الالتقاء فى ميدانها بثلاثة جيوش منظمة من الشرق والشمال والجنوب . وحل الموعد المتفق عليه وقدم الحليفان الفرس والانكليز . . . وتأخرت القوات التركية عن الموعد المضروب قليلا . فلما وصلت وجدت ان الدائرة كانت قد دارت على حليفها . . . وخرجت كعب من المعركة الفادرة المفاجئة بنصر مؤزر . ونجت بذلك من شر محقق .

ولكن متسلم البصرة التركى لم يقنع بالهزيمة . بل قاد رتلا مستقلا من الجيش العثمانى من الجانب الايمن للنهر على أمل ان تقضى المفاجأة على معنويات الكعبيين فيستسلمون . . . وبذلك يحقق مالم يحققه الجيشان الانكليزى والفارسى . ولكن الشيخ سليمان - شيخ

كعب - كان أشد ذكاء من الموظف التركى الطموح فعاجله بهجوم صاعق وضعه من اللحظة الاولى فولت جماعته الادبار واستولت كعب على ثلاث سفن تركية .

وكان الشيخ سليمان يدرك ان الحلفاء لن يسكتوا عن هذه الهزائم المهينة فلجأ الى الحيلة فى كسب المعركة القادمة . . . باخراج بعض أطرافها أو تجميدهم .

كان يعرف ان الاتراك حساسين جدا للرشوة . . . فقدم لقيادة الفيلق التركى رشوة زهيدة على ان يهادنوه بينما تنتهى المعركة . فقبلوا الرشوة - كعادتهم - ونخلوا عن المعركة . فاغتنم سليمان الفرصة وبدلا من ان ينتظر قيام العدو بهجومه . بادره هو بالهجوم . فبدأ بالقوات الانكليزية المتجمعة فكسرها واستولى على ثلاث سفن حربية منها احتفظ بها بعد ان سرح ضباطها وضمها الى أسطولها .

وصعبت الهزيمة على الحكومة الانكليزية فى الهند ، فأرسلت أسطولا آخرأ أكثر استعدادا وقوة سنة ١٧٦٦ . وتمت الصفقة مرة ثانية بين الحلفاء الثلاثة (الاتراك والايروانيون والانكليز) فتقدم الجيش التركى من الشمال . وتقدم الايروانيون من الشرق وتقدم الاسطول الانكليزى من الجنوب . ولكن العجلة كانت طابع الحملة . فلم تحقق هدفها أيضا . بل كانت النتيجة مفجعة بالنسبة للاتراك والبريطانيين . اذ احترقت سفينتان انكليزيتان وتسع سفن تركية .

علق لونغريك على هذه الهزيمة بقوله :
« ولم يثار (الانكليز) لهذا الهجوم الكعبى . . . وترك الضغينة تتلاشى بالتدريج » .

ان كعب لم تضعف الا بعد ان تخلفت عن التطور العلمى . . . ولم تلحق بالامم التى سبقتها . ومما يدل على استمرار قوة كعب وقوة أسطولها ومدى نفوذه وسيطرته انه ظل يسيطر على الطرق فى المنطقة ويفرض على الاساطيل الاجنبية الرسوم . . . حتى انه أسر سفينة تركية سنة ١٧٧٤ وضمها الى أسطولها .

ولن ننهى هذا الفصل دون ان نناقش كلمة لونغريك عن الثأر . . . والتى أراد بها ان يظهر المستعمرين البريطانيين بمظهر الحلم .
« ان سكوت بريطانيا عن هذه الهزائم المنكرة . . . لم يكن ليفسره

حلمها كما يزعم لونغريك ، بل تفسره تلك النهضة الصادقة التي عمت
شعب عمان العربي في نفس الفترة . . وخطر الجسيم الذي حملته
للاستعمار الانكليزي ولنفوذه . فمن المعروف ان الامامة قد أنقذت من
السقوط والتضعف . فتولاها الامام الشجاع أحمد بن سعيد الذي
وحد عمان وقضى على التدخل الاجنبي وطرد الفرس وحلفاءهم من
البلاد . . حيث كانوا يمثلون مرتكزا طبيعيا للانكليز . . ويحمون
طرق مواصلاتهم . واشتدت المقاومة ضدهم في كل مكان . وأغلقت
السبل في وجوههم . . حتى بدأ اليأس يدب في نفوسهم وشرعوا
يفكرون جديا بالتخلي نهائيا عن المنطقة العربية على حد قول السياسي
الانكليزي كرزون .

ومن العجيب ان الاتحاد القبائلي الذي نتولى شرحه كان يتغلب في
معظم المعارك على خصومه رغم قوة هؤلاء الخصوم . ورغم تحالفهم
وشنهم المعارك المشتركة ضده . ولكن مما لا شك فيه ان معونة عمان
وسواحلها ومساندة أساطيلها القوية كانت العامل الاول في ذلك
التغلب والنصر . وهو الذي يستطيع - وحده - ان يفسر لنا سر
صمود القبائل العربية في الشمال .

ففي المعارك العدوانية المدبرة التي شنها العدو ضد الكعبيين بين
سنتي ١٨٠٠ - ١٨١٢ مثلا ، استعان الكعبيون بأسطول الجواسم
الذي بادر الى نجدتهم رغم عنف الهجمات التي كان يتعرض لها
الجواسم في عقر دارهم آنذاك . ورغم انه لم يكن قد مضى على تهديد
مينائهم الاول - رأس الحيمة - بضعة سنين .

سياسة التجزئة وتفقيت القوى :

ان السياسة الاستعمارية الوحيدة التي أفلحت في تحضيد شوكة
القبائل العربية في الشمال هي ذات السياسة الانكليزية الجبيشة التي
خضدت شوكة القبائل في الجنوب فجزأت القوى العربية الموحدة
وباعدت بين القبائل المتآزرة المتآخية ومزقت الصفوف الموحدة . .
وبعشرت الكتل الجماهيرية الضخمة وفتتها الى قوى صغيرة ضئيلة
القيمة معدومة الاثر .

وليس غريبا - بطبيعة الحال - ان نجد المشيخات والدويلات
الصغيرة - اليوم - تنتشر على طول سواحل الخليج العربي وعمان . .
كحبات الفسيفساء (الموزاييك) . كل مشيخة منها . . تعادى الاخرى

فبعد ان تحطمت قوة الجواسم ، ودمر الانكليز أسطولهم بصورة
تدرجية . . وهدموا موانئهم . . وأجبروهم على توقيع معاهدة ١٨٢٠
مرغمين . . مزقوا بلادهم الى مشيخات سبع . وحرصوا على ابراز
زعامات جديدة فيها . يحمونها بنفوذهم وأسلحتهم ويجرون عليها
الرزق ويفصمون بينها وبين شعبيها . فتشعر بأنهم أولياء نعمتها
وعلة وجودها . وهكذا يكون الانكليز قد وضعوا كل زعيم من هؤلاء
الزعماء الاقزام ، في وضع لا يستطيع فيه حتى ان يفتح عينيه في
وجه أسياده بله الثورة عليهم ، حتى ولو أراد ذلك . قبلده ضيق
صغير قاحل لا تجارة ولا زراعة ولا صناعة ولا مورد له . يعيش فيه
بضعة آلاف من الجهلة والمرضى على الكفاف . معدوم النفوذ حتى على
هؤلاء . مكبل بقيود المعاهدات . تجره عجلة الاستعمار التي تدور
فوق جسده وتسحق مصالحه ومصالح بلده في جملة ما تسحق .

وكنتيجة للعداء والتخاضم والطمع والخوف ، هذه السموم التي
نفثتها (الحية العجوز) بريطانيا بين صفوفهم . تحول الواحد منهم
الى وحش مفترس بالنسبة لآخوانه في حين انه كلب طيع سلس القياد
في يد أي موظف بريطاني تافه .

هكذا انفصلت المشيخات والامارات . . الى قطع صغيرة كقطع
الشطرنج تتلاعب بها اليد المستعمرة . . كيفما تهوى وتشاء . .
وتضعها حيثما تريد . . موهمة اياها انها دولا . . كباقي الدول
منفصلة عن الوطن . . منفصلة عن العالم الخارجي . . وعن عالمها
العربي . مستقلة عن كل انسان الا عن بريطانيا .

هذه هي السياسة الاستعمارية التي تميزت بها بريطانيا في كل زمان
ومكان . . الا وهي سياسة تمزيق المنطقة والحيلولة دون اتحادها .
وهي نفس السياسة التي طبقت في جميع سواحل الخليج . . بل
وبنسبة مختلفة في فلسطين والاردن والعراق . . ألا وهي سياسة
تمزيق المنطقة والحيلولة دون تقارب أجزائها . . أو اتحادها .

ان هذه السياسة تفسر لنا لماذا لم تقف انكلترا الى جانب عملائها

— سلاطين مسقط — حينما أرادوا مد نفوذهم الى الخليج العربى .
وتحقيق بعض المطامع التوسعية الشخصية . بل عملت ، حتى على
تمزيق امبراطوريتهم . فقسمتها الى قسمين : مسقط وزنجبار .
لنفس الغرض . . . الا وهو اضعاف المنطقة وتشيت شملها .

واذا كان التاريخ لم يسجل — بعد ذلك — وقوع اضطرابات بحريا
خطيرة ، فى المنطقة كالسابق . فمرد ذلك الى ان قوة المشايخ قد
تلاشت واضطر أكثرهم نتيجة المضايقات الانكليزية والمصادرات
والغرامات التى بيع سفنهم الباقية ومراكبهم الصغيرة الى الهنود الذين
ساعدهم الانكليز للحلول محل العرب فى تجارة الموانئ الصغيرة .
وصارت السواحل العربية — هذه — الى حال من الفقر جعلت
شيوخها يلجأون الى استجداء الادارة البريطانية ، لتجود عليهم
بمرتبات شهرية حقيرة ، وأصبحوا مرتزقة لدى حكومة الهند
الانكليزية .

ان سياسة شراء الشيوخ والامراء . . . ظلت — حتى اليوم — من
الاساليب الانكليزية الشديدة الرواج . والمستعملة — كوسيلة من
وسائل حماية المصالح الاستعمارية ، فى المناطق الشديدة الحساسية ،
والحقيقة التى لا مراء فيها ، ان الاستعمار الانكليزى ، قد استفاد
من هذه السياسة كثيرا جدا . . . ومن الفوائد التى جناها انه لم
يصطدم — بعد ذلك — بمعارضة حربية جدية تذكر . اللهم الا فى
عمان الداخلية التى ظلت أمينة على تقاليد الامامة وثورية النضال .

والسبب فى خمود الباقين وانطفاء نارهم ، ان اعطيات الانكليز
كانت تملأ — باستمرار — خلوق هؤلاء السادة ، من القادة والامراء
والشيوخ ، فتمنعهم عن الكلام . . . بله الاحتجاج أو الثورة . وتحولهم
الى اجراء رخاص مهمتهم حراسة المصالح الانكليزية لا الثورة عليها .
وقد أدرك الانكليز — مدى الفوائد التى يجنونها ، من هذه السياسة
. . . فأعقدوا . . . وقرروا منح المرتبات للجميع ، بدون استثناء . . . و
تلكؤ . . . فأصاب منها الكبير والصغير . . . من مشايخ عجمان الصغير
ودبى . . . الى سلاطين نجد !!

كل يتناول المرتب الذى يتناسب مع أهمية منطقته . . . ويتكافأ
نفوذه الشخصى . . . ومكانته فى عيون رعاياه . . .

الفصل الخامس عشر

التدخل الانكليزى فى القرنين الاخيرين

رأينا فى الفصول السابقة ، ان علاقات الانكليز بالسواحل العربية ،
كانت — قبل وصول سلاطين البوسعيد الى الحكم — علاقات بسيطة
عابرة وشفهية . ولم يكن أى حاكم عربى قد ارتبط بانكلترا بعقد
مكتوب قبل أن فعل ذلك سلطان بن أحمد .

كان الانكليز فى الفترة الاولى يعبرون على هذا المرفأ أو ذاك ، أو
يدافعون عن سفنهم فى عرض البحر . أو يهاجمون بها السفن
الاخرى ، دون أن يكون هناك — ثمة قواعد أو قوانين دولية تحدد
سلوكهم .

وكان الحكم فى عمان — آنذاك — فى أيدي أئمة أو أمراء محليين
يعتمد معظمهم على تأييد الشعب الذى يحكمونه ، ويرتبط بالارض .
وظل الامر كذلك حتى توفى الامام البوسعيدى الاول أحمد بن سعيد
الذى لم يكن حكمه ليقوم لولا تأييد الشعب لبطلته فى طرد الاجنبى
من أرض عمان .

ولكن تغير الحال بعد فترة قصيرة من موته ، فانقسمت عمان الى
قسمين :

قسم ساحلى مركزه مسقط يحكمه سلاطين البوسعيد .
وقسم داخلى مركزه الرستاق أو نزوى يحكمه اما أئمة منتخبون
من الشعب ، أو أمراء يمثلون القبائل شبه المستقلة .
وبينما استطاع القسم الداخلى أن يحصى استقلاله ، وأن يحول دون
تغلغل النفوذ الاجنبى اليه . فان المنطقة الساحلية (مسقط وتوابعها)
استسلمت للاجنبى بدون قيد ولا شرط ، وربطت نفسها بمعاهدة
واتفاقيات كلها تدور حول تثبيت النفوذ الاجنبى ، والنيل من
استقلال مسقط وكرامتها ، وتكبيها بالقيود المهينة . وتجديد هذه
الاتفاقيات بين فترة وأخرى ، لاضافة قيود جديدة على القيود
السابقة .

لقد بدأ هذا التغلغل فى مسقط على أيام سلطان بن أحمد الذى

الفصل الخامس عشر

التدخل الانكليزي في القرنين الاخيرين

رأينا في الفصول السابقة ، ان علاقات الانكليز بالسواحل العربية ، كانت - قبل وصول سلاطين البوسعيد الى الحكم - علاقات بسيطة عابرة وشفهية . ولم يكن أي حاكم عربي قد ارتبط باكثرها بعقد مكتوب قبل أن فعل ذلك سلطان بن أحمد .

كان الانكليز في الفترة الاولى يعبرون على هذا المرفأ أو ذاك ، أو يندافعون عن سفنهم في عرض البحر . أو يهاجمون بها السفن الأخرى ، دون أن يكون هناك - نمة قواعد أو قوانين دولية تحدد

سلوكهم .

وكان الحكم في عمان - آنذاك - في أيدي أئمة أو أمراء محليين يعتمد معظمهم على تأييد الشعب الذي يحكمونه ، ويرتبط بالأرض . وظل الأمر كذلك حتى توفي الامام البوسعيدى الاول أحمد بن سعيد الثاني لم يكن حكمه ليقيم لولا تأييد الشعب لبطلته في طرد الاجنبى من أرض عمان .

ولكن تغير الحال بعد فترة قصيرة من موته ، فانقسمت عمان الى قسمين

قسم ساحلى مركزه مسقط يحكمه سلاطين البوسعيد .

وقسم داخلى مركزه الرستاق أو نزوى يحكمه اما أئمة منتخبون من الشعب ، أو أمراء يمثلون القبائل شبيهة المستقلة .

وبينما استطاع القسم الداخلى أن يحمي استقلاله ، وأن يحول دون تغلغل النفوذ الاجنبى اليه . فان المنطقة الساحلية (مسقط وتوابعها) استسلمت للاجنبى بدون قيد ولا شرط ، ورطت نفسها بمعاهدة واتفاقيات كلها تدور حول تثبيت النفوذ الاجنبى ، والنيل من استقلال مسقط وكرامتها ، وكنيلها بالقيود الهينة . وتجديد هذه الاتفاقيات بين فترة وأخرى ، لاضافة قيود جديدة على الفيسود السابقة .

لقد بدأ هذا التغلغل في مسقط على أيام سلطان بن أحمد الذى

- سلاطين مسقط - حينما أرادوا مد نفوذهم الى الخليج العربى . وتحقيق بعض المطامح التوسعية الشخصية . بل عملت ، حتى عو تمرير امبراطوريتهم . فقسمتها الى قسمين : مسقط وزنجبار لنفس الغرض . . . الا وهو اضعاف المنطقة وتشيت شملها .

واذا كان التاريخ لم يسجل - بعد ذلك - وقوع اضطرابات بحرية خطيرة ، في المنطقة كالسابق . فمرد ذلك الى ان قوة المشايخ قس ثلاثت واضطر أكثرهم نتيجة المضايقات الانكليزية والمساسك درار والغرامات التى يبيع سفنهم السابقة ومراكبهم الصغيرة الى الهنود الذين ساعدتهم الانكليز للحلول محل العرب في تجارة الموانئ الصغيرة . وصارت السواحل العربية - هذه - الى حال من الفقر جمل شيوخها بلجأون الى استجداء الادارة البريطانية ، لتجود عليهم بمرتبات شهرية حقيرة ، وأصبخوا مرتزقة لدى حكومة الهند الانكليزية .

ان سياسة شراء الشيوخ والامراء . . . ظلت - حتى اليوم - من الاساليب الانكليزية الشديدة الراج . والمستعملة - كرسية مرسائل حماية المصالح الاستعمارية ، في المناطق الشديدة الحساسية والبطيئة التى لا مراء فيها ، ان الاستعمار الانكليزى ، قد استغنى من هذه السياسة كثيرا جدا . . . ومن الفوائد التى جناها انه لم يصطدم - بعد ذلك - بمعارضة حربية جسدية تذكر . اللهم الا في عمان الداخلية التى ظلت أمينة على تقاليد الامامة وثورية النضال .

والسبب في خمود الباقين وانطفاء نارهم ، ان اعطيت الانكليز كانت تملاً - باستمرار - حلق هؤلاء السادة ، من القادة والامراء والشيوخ ، فتمنعهم عن الكلام . . . بله الاحتجاج أو الثورة . وتحولهم الى أجراء رخاض مهتهم حراسة المصالح الانكليزية لا الثورة عليها . وقد أدرك الانكليز - مدى الفوائد التى يجنونها ، من هذه السياسة . . . فاعقدوا . . . وقرروا منح المرتبات للجميع ، بدون استثناء . . . ولا تلكؤ . فأصاب منها الكبير والصغير . . . من مشايخ عجمان الصغير ودنى . . . الى سلاطين نجد !!

كل يتناول المرتب الذى يتناسب مع أهمية منطقته . . . ويتكافأ في نفوذه الشخصى . . . ومكانته في عيون رعاياه . . .

الفترة . ولكن أسطولهم لم يكن حر الإرادة . ولهذا لم يكن ليحوز اعجاب عرب عمان الغاضبين على خنوع أصمغابه . بل على العكس كانوا ييقنون على استخدام البوسعيد لهذا الأسطول ضدهم . فالجملات الرئيسية التي اشتركت فيها الى جانب الاككيين أسقطت هيبتهم وهيبة أسطولهم بدلا من رفعها . ولم يكتفوا بالعلاقات الشفهية القديمة فحولوا هذه العلاقات الى اتفاقية مكتوبة مع الاككيين . في عهد سلطان ابن أحمد سنة ١٢١٣ هـ ١٧٩٨ م .

وفي عام ١٨٠٠ وافق سلطان على تعيين أول مقيم بريطاني في مسقط

وعلت اتفاقية ١٧٩٨ بما يتفق مع ذلك .

وفي عام ١٨٢٢ عقد بين الفريقين معاهدة تتعلق بمنع تحسرات الرقيق . على غرار المعاهدات التي فرضتها اكلترا على مشيخات ساحل الهند ومارت سواحل الخليج العربي .

وفي عام ١٨٣٩ وقع سعيد مع بريطانيا معاهدة تجارية جاء في

نصوصها :

« ان رعابا صاحبة الجلالة البريطانية بمنعون الحرية الكاملة في الدخول والاقامة والتجارة والمرور مع بضائعهم في جميع أراضي (عظمى) سلطان مسقط » .

وقد وضع هذا النص خصيصا لاجراج زعماء الداخل الذين أغلغوا عمان الداخلية في وجوه الاجانب .

وفي عام ١٨٥٤ . أي قبيل وفاة سعيد ، تنازل - بدون مقابل - للملكة فكتوريا ، عن جزائر (قوريا موريا) الواقعة أمام الساحل الجنوبي الشرقي لعمان ، لتصبح ملكا خالصا لها ولورثتها أو لمن يخلفها .

وقد أدركت بريطانيا عمق صلاتها بمسقط ومدى الخدمات التي كان يقدمها سلاطينها لها . فدافعت عنهم ، وحافظت عليهم محافظتها على نور عينها ، لكي تستطيع استخدامهم في كل لحظة في تحقيق أغراضها الاستعمارية . حتى انها وضمت قواها المساحة وأسطولها

الطربي في المحيط الهندي ضد أعداء سلاطين مسقط . ولولا هذا التدخل الاككي المباشري لوقعت مسقط في أيدي شعث عمان سهولة ولسقط معها حكم السلاطين الجورنة ، الذين فقدوا كل هيبة واعتبار حتى في نفوس أتباعهم .

انصرف الى التفضايا الدنيوية بكليته ، ولم يعر الامامة أي التفات . ومنذ عهد سلطان لم يحاول الحكام المنحدرون من عائلته ان يطهروا بنائيد ديني أو شعبي لحكمهم ، وقنعوا بالاعتماد على ما لهما ثلاثتهم من هيبة وسلطان في الرحلة الاولى . ثم اعتمدوا - في الرحلة الثانية - على عمليات البطش والارهاب من جهة وعلى تأييد حلفائهم الاككيين من الجهة الاخرى .

فإذا ما عوتبرا في ذلك أو انتقدوا ، اتخذوا من الخطر الارهابي حجة لبرير سياستهم المائلة للاستعمار والمستعمرين .

كان الوهابيون (الموحدون) يملكون نفوذا كبيرا بين قبائل الجواسم ونبي بوعل . وكانت حروب الوهابيين وغاراتهم لا تنقطع فعلا . . . وكانت القبائل المناهضة للاككيين في سواحل عمان تعتمد على سبت الوهابيين لها عند الشدة . دون أن يكون لذلك سند من الحقيقة .

فاتخذ سلاطين مسقط من غارات الوهابيين ومن مناهضة القبائل للنفسوذ الاككيين حجة لارتباطهم في أحضان المستعمرين . وقد شجعهم الاككيين على هذا السلوك . وأخذوا - بدورهم - برحزون أكثر فاكتر عن الخطر الوهابي . . . وعن . . . تحريض الوهابيين للقبائل العربية الساحلية ضد الاككيين ليزيدوا من ارتباط حكاهم مسقط بهم ، وابيائهم ان لا نجاة لهم الا بالاعتماد على حماية الاسطول الاككيين .

مع ان الوثائق التاريخية (الاككيية والوهابية) تجمع على خلاف ذلك - فالاككيين كانوا يحرضون على عدم المساس بهم أو التحرش بمن يمثل مصالحهم . . . والوهابيون كانوا - في مقابل ذلك لا يتعرضون للمصالح الاككيية أو لن وضعوا أنفسهم تحت حماية الاككيين .

واليك ايها القارئ الوثيقتين التاليتين لايضاح هذه الحقيقة : وقد أصر سلاطين البوسعيد على السير في هذه السياسة الخائفة ، ولم يحاولوا الرجوع عنها . فظافروا بمتعدون عن الشعب ، معينين في توطيد علاقاتهم بالاجنبي ، منشغلين باستغلال أملاكهم في زنجبار وشرق أفريقيا . تحت حماية النفوذ الاككيين وبارشاف منه . كان سلاطين البوسعيد يملكون أسطولا ضخما ، بالنسبة لتلك

وفي عام ١٨٥٦ توفي سعيد بن سلطان فانتقم الانكليز الفرصة المحكم فحصل الجميع على تأييد الكلترا ومباركتها . . . في وقت واحد . وفي اثناء ذلك كان شعب عمان قد تمكن من بعث الامامة وانتخاب واقسمت الاميراطورية الواسعة القوية بناء على هذه التوسعية امام شجاع هو عزان بن قيس في عام ١٨٦٨ . فاثار بعث الامامة الحبيثة . . . وتم اضمارها بدون ضجة وتحويلها الى امارتين صغيرتين متعاذتين متعاذتين . تمسكا مع سياسة التفرقة والتمزيق التي سارت عليها الكلترا مع اعدائها ومع اصدقائها بدون تفريق . اما القسم الاول فقد شمل مسقط وتوابعها على سواحل عمان . وتولى الحكم فيه تويني بن سعيد . والقسم الثاني شمل زنجبار والملكات الافريقية وتولى الحكم فيه ماجد بن سعيد .

كان الانكليز لا يطمعون الى مسقط وهي دولة كبيرة غنية ذات تجارة واساطيل . حتى ولو كانت خاضعة لهم . فالخضوع يتطلب الضعف والفقر والتوكل . . . وهذه صفات لا تتوفر في دولة واسمة غنية . اذ قد يتاح لها زعيما وطنيا صادق الوطنية يستولى على الحكم ويقيض على النهوض الانكليزي . فكان لا بد اذا من ازالة اسباب القوة . . . والقضاء على الغنى والحال الفقر والضعف والفرقة مكانه . وبذلك يامن الانكليز احداث المستقبل المحتملة . فوجهوا همهم لتعزيقها . فلما تم لهم ذلك بعوت سعيد . اثاروا المشاحنات والمخالفات بين شطري العائلة في (زنجبار ومسقط) فاتيح لهم بسط نفوذهم على الشطرين .

ولما اشتد النزاع بين الاخوين ، عرض خلفهما على اللورد (كاننج) نائب الملك في الهند ليكون حكما . فاصدر حكمه في عام ١٨٦١ الذي قضى بتثبيت الانقسام وابقاء كل ارجح مكانه ، ولكنه فرض على ماجد ان يدفع الى تويني حاكم مسقط اعانة سنوية مقدارها ٤٠ ألف ريال . فدفع ماجد المبلغ عدة سنوات ثم توقف . فتعهدت الحكومة الانكليزية بدفع المبلغ بدلا عن ماجد من ميزانيتها الخاصة . وذلك تقوية لتريكي ضد الامامة . هذا من جهة . اما من الجهة الاخرى فقصد ارث الانكليز النزاع الداخلي في قلب عائلة تويني في مسقط فكثير الطامعون بالعروش ونسبت الحروب والمبارك بين الاخوة والاقارب . . . وكان كل منهم يرجع الى الانكليز ليحصل منهم على العون الذي يمكنه من الوصول الى

« يستمتع رعابا صاحبة الجلالة البريطانية - فيما يتعلق بأشخاصهم وممتلكاتهم - في داخل أراضي صاحب العظمة سلطان مسقط بامتياز خارج النطاق » .

« لقد حلت هذه المعاهدة محل معاهدة ١٨٣٩ . وبعد توقيع المعاهد يوم واحد ، وقع السلطان تعهدا وحيد الطرف مؤداه :
« انه - أي السلطان - يأخذ عهدا على نفسه وعلى خلفائه وذريته بأن لا يتنازلوا عن أي جزء من أراضي امارتهم ولا يؤجروا أو يبيعوا أو يأذنون باحتلاله لاحد غير بريطانيا العظمى » .
وهكذا نجد ان سلاطين مسقط لم يدخروا وسعما في ارض المستعمرين الانكليز الا ونفذه دون ان يلتفتوا الى مشاعر سكان عمان . ولا الى مصالح شعبيهم . فكان هذا السلوك منهم يدفع الخلعين دائما للتخلص منهم وتحرير مسقط وعمان من شرورهم .

اعلان الانكليز جهالتهم على مسقط :
حاول شيوخ عمان و كبار قادتها في مناسبات متعددة تحريض عمان ، ومحو آثار النذل والهوان التي فرضها سلاطين مسقط عليها بالاستيلاء على مسقط وطرد السلاطين منها . وكان رؤساء العشائر الكبرى على رأس هؤلاء القادة . وخاصة عشائر الشارقة . وقس برز من بين هؤلاء الشيخ صالح الجارني وولده ابراهيم الذي اظهر بسالة فائقة رغم انه لم يكن قد تجاوز العشرين ، فاحصل مسقط ودخل قصر السلطان وكاد يخلص عمان من طاعتها . وذلك في مدى عام واحد .

ولكن التدخل الاجنبي حال دون انمام هذه المهمة الوطنية الحطيرة ، وقد ساعد على ذلك بقايا الخلافات القبلية التي كانت ما تزال تفرز الشعب العربي في عمان . فتم الصلح مع سلطان مسقط وفل انحصار عنها .
ان حصار مسقط وعنف المعارك التي دارت في شوارعها واستيصال شعب عمان من أجل تحريرها . كسف للانكليز مدني انظر الذي يحدث بها . فقد برهنت الحوادث الاخيرة على ضعف السلاطين وعجزهم عن حماية مسقط .
وكان الانكليز قد اتخذوا من مدينتي مسقط وطلح النجوارتين مركزا أساسيا لحكمهم وحولوا المدينتين الى قاعدة حربية يستمر

القرار :

« بالنظر لما لبريطانيا من مصالح جوهريه في مدينتي مسقط وطلح فانها في تسع للشيخ الشيوخ بهاجمة هاتين المدينتين مهما كانت الخلافات والثائرة بين أولئك الشيوخ والسلاطان » .
قرار الجمعية وبيان باريس :

كانت المناقشة بين الانكليز وفرنسا قد دفعت بالدولتين في سنة ١٨٦٢ للنزاع حول بعض الحقوق في مياه مسقط وزنجبار ولا سيما حق السفن غير الفرنسية برفع العلم الفرنسي فهدد الانكليز على اجراء اتفاق مباشر مع الفرنسيين واعلان استقلال المنطقة وذلك لتخفيف حدة التوتر . ولكي يتاح لهم الاستمرار بحكم المنطقة دون

« اننا نريد حاكمها (مسقط) بالاعانة ، ونعطي سياستها ، ولهذا فعلينا ان لا نسمح بأي تدخل اجنبي في شئونها »
كما التي للورد لايزداون - وزير خارجية اكلترا في ٥ مايو ١٩٠٣ خطابا قال فيه :

« يجب ان نعتبر ان انشاء قاعدة بحرية او ميناء حصنا في الخليج من جانب أية دولة اجنبية اخرى ، تهديدا خطيرا للمصالح البريطانية ، وكل تأكيد يجب ان نقاومه بجميع الوسائل التي تحت تصرفنا »
ولم تبدل هذه السياسة الانكليزية قيد شعرة ، بل تبرزت في نفس الاتجاه بالنسبة لسلطين مسقط وبالنسبة لشايخ السواحل الخاصة لبريطانيا .

فقد كتب للورد كوزون عن سلطان مسقط بمناسبة الرحلة التي قام بها الاول الى الساحل العربي في عمان والخليج في عام ١٩٠٣ ما يلي :
« سلك صاحب العظمة السلطان في هذه المناسبات جميعا مسلك السلاطة والرفار ، وكان مسلكه مسلك تابع موال للحكومة البريطانية ، لا مسلك حاكم مستقل . ان الموقف وما أحاط به ، بدا انه كان كافيا - في نظر السلطان لان يقنعه بالاعتماد على صداقتنا ، وبالموقف موقف الادعاء لرغبائنا » .

وهكذا نجد ان الانكليز حينما أعلنوا بيان باريس لم يكونوا جادين ولا صادقين . وهم في حقيقة امرهم يحتفرون سلطين مسقط . ولا يستكفون عن اهانتهم والتعريض بخنوعهم وذلكهم . ولم يكونوا راغبين قط في احترام استقلال مسقط أو زنجبار ، وانما كان عملهم مجرد تدبير مؤقت ، أملته ظروف المنافسة القائمة بينهم وبين فرنسا . ولم يكن الانكليز ينظرون الى مسقط وحكامها الا على أساس أنهم مجرد اتباع يدورون في فلك السياسة البريطانية ، ويخدمون مصالحها .

الفصل السادس عشر

محصلة الاستعمار الانكليزي في مسقط وعمان فلسفته . نهجه . أساليبه . منجزاته الحقيقية

بعد ان شرحنا في الفصول السابقة من هذا الكتاب ، دور الاستعمار الانكليزي واعماله ، في الخليج العربي و عمان ، خلال قرون ونصف من الزمن . أصبح لزاما علينا ان نجمل - في هذا الفصل -

تدخل احد . . عن طريق المعاهدات والاتفاقيات . . فاعلموا ان المبادئ العربية المتنازع على مياهها مستقلة . . وان لا شأن لأي من الدولتين (فرنسا وانكلترا) بها . وان حكومتى زنجبار ومسقط مستقلتان حكومتان حرتان في تصرفاتهما . فقبل الفرنسيون بهذا اطل . . ولاكتهم اشتراطوا ان يضمن الفرنسيون هذا الاستقلال بنفس مكتوب .

وهكذا صدر ما يسمى (بيان باريس) في عام ١٨٦٢ . الذي تعهد فيه الفرنسيون والانكليز : على احترام استقلال سلطان مسقط و سلطان زنجبار .

واستنادا على هذا البيان منح فيصصل بن تركي للفرنسيين حق انشاء مرفا لهم على ساحل مسقط لاستخدامه في شحن الفحم .
ولا كان منح مثل هذا الامتياز للفرنسيين يمس مصالح اكلترا الاستعمارية في المنطقة . لجأوا الى فيصل وأخذوا يهددونه باستخدام القوة . . فالغى المنحة فوراً . فعاد النزاع بين الدولتين ، وسمحت فرنسا لنفسها بأن تتصل بمختلف المنفذين في مسقط . . وزنجبار وساهمت في تهريب الاسلحة الى القبائل ، الامر الذي اضطر الدولتين لعقد عدة اتفاقيات ، كما اضطرهما لرفع الخلاف الى محكمة دولية دائمة في عام ١٩٠٥ .

فلما خاف اللورد كوزون - المداخلة الانكليزي ونائب الملك في الهند - من خطر المنافسة الفرنسية الفرنسية وتضاؤل هيبة اكلترا في الخليج العربي عين ضابطا من ضباطه الموثوقين وكيلما سياسيا في مسقط هو السر (برسي كوكس) الاستعماري والدبلوماسي المشهور مرورا اباه - قبل سفره - بالنصيحة التالية التي تكشف عن حقيقة موقف الانكليز من حكام مسقط .

« دع السلطان يفهم ان كل اعتبار من اعتبارات السياسة والروية والخبرة المادية وآمال المستقبل ، تتركه على ان يطل الى جانبنا . ولكن الواجب عليه ان يسلم بان مصالحه مرتبطة بمدى ولائه لبريطانيا العظمى »
فعمل كوكس بموجب هذه النصيحة خلال السنوات الخمس التي قضاها في مسقط ، وذلك في سبيل تثبيت السياسة الانكليزية في الخليج ومسقط بالشكل الذي أراد اللورد كوزون . . والذي قال موضحا هذه السياسة :

محصلة تلك الفترة الطويلة ، من الآلام والشقاء . . . وإن تكثف عنها . ونخصص للتبشير بهذه الفلسفة قسم ومبشرون وكتساب روح السياسة الاستعمارية ، وعن فلسفة الإنكليز الخاصة في تفهيم وشرح . . . جعلوا صهم الدفاع عنها وتبرير أعمالها . بل لقد . . . أقول فلسفة الإنكليز . . . فلا تستغرب أيها القارئ كلمة فلسفة اتخذت من هذا الشعار مصدرا لجمع القيم السياسية ، وفرضت على هنا ، فالإنكليز قد فلسفوا فلسفوا خططهم الاستعمارية الحثيثة ، ووضعوها موضعها (الإنكليز وغير الإنكليز) أن يسبروا وفق مقتضياته الزمانية القواعد والقوانين . وأخضعوها للملوم الإنسانية (السيكولوجية) والمكانية ، ولم يراعوا مبدأ أخلاقيا ولا احتراموا قيمة إنسانية أو حتى يسهل عليهم خداع الشعوب الساذجة وحكمها . . . من جهة . اجتماعية مهما كان لهذا المبدأ أو تلك القيمة من قسسية أو احترام وحتى يسهل على الشعوب المحكومة أو المخدوعة اذدادها من الجهل النفوس .

والأخرى . . . وليس قولنا - هذا - جديدا ، بل أنه قديم ، قدم الاستعمار الأمر - فانها كانت تتسع مع الزمن وتشمل أماكن كثيرة البعد عن الإنكليزي . فكثروا ما تسع عن خبث الإنكليز . . . وحدة ذكاهم الهند . لقد انتبهوا الى كل ما كان يدور في خلد أعدائهم من احتمالات الاستعماري ، ولقّم خططهم ، وبعد نظرهم ، حتى بلغ الأمر ببعض لغزو الامبراطورية البريطانية فهربوا الى ما فيها من ثغرات وسدوها . من اكتوى بنارهم أن رأى شبحهم يطل من وراء كل مشكلة عالمية . لقد نهتهم خطط نابليون - مثلا - الى ضرورة احتلال مناطق وبلاد لم تكن لتخطر لهم على بال ، فهرعوا اليها واحتلوها .

فهل كانوا كذلك في بلاد العرب ؟ أم انتهجوا سياسة خاصة بالنسبة لهذا الجزء من العالم ؟ ووضعو ١٧٩٨ نهديف الى غزو الهند وضرب الصالح الإنكليزية فيها . وعين - له - فلسفة استعمارية قائمة بذاتها ، تختلف عن مجمل فلسفتهم نابليون ثلاث طرق لتنفيذ الخطة . هي طريق هرات البري أو طريق القوافل والخليج العربي أو طريق البحر الأحمر . فما أن علم الإنكليز بهذه الخطط . . . وبالثاقف التي افترض نابليون أن يهاجم الهند من أحدها حتى وجهوا كل امكانياتهم للقبض على هذه المناقذ وبسط سيطرتهم المباشرة أو غير المباشرة عليها .

أما البحر الأحمر فقد سيطر الإنكليز عليه بالاستيلاء على ما أطلقوه قريص والسودان وعدن وأندواحي التوسع الأحمدية وسواحل العرب الجنوبية وأجزر القرينية منها .

وأما طريق هرات البري فقد أغلقه الإنكليز في وجه العدو بضم بلوچستان الى الهند وتوطيد نفوذهم وقتا في أفغانستان والنصف الجنوبي من بلاد فارس .

وأما الخليج العربي فقد كان سببا في بذل جهود كبيرة ومناقشة استعمارية طويلة ضاربة لم تتوقف حتى تم احتلال الإنكليز للعراق والسيطرة على سواحل الخليج العربي وعلى سواحل عمان .

ثانيا - مرونة السياسة الإنكليزية وتأنوها : لقد كيف المستعمرون نظام حكمهم في ممتلكاتهم ، وفي البلاد التي

امتد إليها نفوذهم ، كسواحل عمان والخليج العربي ، وفقا للظروا
الزمانية والمكانية ، ولم يتقيدوا بمبدأ معين ولا بسياسة ثابتة .
حكما امبراطورية واسعة ، متباينة بشعوبها ولغاتها وطقوسها
المستعمرون استغلاليها بصرف النظر عن الهند وطريق الهند .
وتطورها التاريخي . فسلكوا مع كل شعب من شعوبها ، بل و
كل فئة من فئات ذلك الشعب ، سياسة تتسجح مع العادات الم
والثقاليات السطحية والخرافات ، ورغبات العامة والمشعوذين
يمثلون أخط فقة اجتماعية الموزقة ، وأمنوا مشاغبتها . وكان كل ما يه
الغفلات الاجتماعية الموزقة ، وتكتسب مشاريعهم الضاربة موافقة هذه الغفلات ورضاه
- طبعا - أن تكتسب المستعمرين - في تفاعلها التدرجي - من نالينا حين
كان نفوذ المستعمرين - في تفاعلها التدرجي - من نالينا حين
قاسيا شديدا حين آخر . كان يتلون بلون المحيط أو المرح
الشاريحية أو الظلوف الآتي ، للمشيخة أو القبيلة أو الفئة التي
إدخال عنقها في الطوف .

كانوا يستعملون سياسة عقد المعاهدات أو الاتفاقات الضم
الخاصة ، القابلة للتحويل والتعديل مع هذا الشيخ أو ذاك .
يعملون الى تعديلها - بصورة بطيئة - فكانوا يسلبون في كل تعديل
جديد حقا من حقوق الشيخ أو الأمير أو السلطان ، كما يمتنون ر
منطقته بالنفوذ . فكانت الرونة والبطء يسببان تراكم الامتياز
الصغيرة ، التي لا يشعر الشيوخ بوطأتها الا بعد تراكمها ، وتعو
الى أغلال محكمة ترتبط أعناق أولئك الحكام الصغار بالعج
الاستعمارية .

وال جانب الرونة . كان الاستعمار الانكليزي يتصرف باليس
والسدة في وقت واحد . . . فيقدر ما هو شديد قاس بل ومثو
مع العناصر الشعبية أو المقاومة لنفوذهم ، نراه لين العريكة متساه
مع الطبقات الرجعية واللغات الحاكمة العميلة ، فيغلق عليها الاعط
والرؤائب ويحكمها من التحكم في رقاب المواطنين ، كي تسلس
القياد . . . وتتمكن لمصالحه أن تسود وتسيطر وتبقى .

ثالثا : سياسة الاحتلال الدائم :

لقد بدأت بريطانيا باحتلال النقاط العسكرية والسوقية والاحتلال الدائم
لحماية مصالحها التجارية في الهند . واستخدمت المناطق المحتلة خيرة خبراتها الى البحريين وسواحل الخليج
طويلا نقاط مراقبة وشراف ، وقواعد عسكرية للسوق والتموين الشرق والغرب . واستبدلت مؤسستها الانتخابية بدوئسيات سياسية

•

وقمرها ، والى ايجاد شبكات واسعة ودفينه للمخبرات

Deutscher

...

1

كل أنواع الاساليب لتدمير الاساطيل العربية وتهدد قواعدها وتدمير واحراق موانئها . . . ولم تنف البلاد العربية المعنية بالامر مكتوفة اليدين لتسم المنطقة العربية بغير حيلت بريطانيا بريطانيا مقاومة شعار الوحدة أو الاخاء أو التقارب أيا البريطانية بالسهولة التي كانت ترجوها . فقد كانت المنطقة العربية مستقلة تمام الاستقلال . وكانت لها فيها دولة بحرية قوية مرمية كإحدى القوى الأساسية خطتها في المنطقة . حتى عرفت الجانب . وكانت تقبض بأساطيلها وثروتها وخبرة بحارتها وتجارتها في العالم كله . بأنها صاحبة فلسفة (فوش تسد) ، فلم تسمح على تجارة المحيط الهندي . فلم تستسلم للعدوان الانكليزي ، في العالم كله . بأنها صاحبة فلسفة (فوش تسد) ، فلم تسمح قارمته ، وخاضت المعارك العربية الملاحنة لتثبت مصالحتها العربي بأي تقارب حتى بين عملائها وماجوريها ، خوفا من أن يستأسد هؤلاء كما تقدم معنا . فاجتمعت - كل هذه الاسباب - لاقناع انكلترا بأفكارها أيضا . وجعلت من عملية التجزئة وتفتيت القوى ديديها وهما لن تنال من قوة عمان والسواحل العربية الا بالحرب الشاملة وبالاداء . ولم تكف بالمناطق التي تقع تحت يديها ، بل تجاوزت الحدود في والتدمير والحرق والافقار وتشيتت القوى ، وقتل المفارمين الاثني نشاطها الحرب فحاربت محاولات التوحيد في جزيرة العرب .

والتمثيل بهم . فاولت للمنطقة العربية اهتمامها الاول ودأبت على تنفيذ خطتها بأناء وصبر ، حتى تم لها ما أرادت ، مستبحة - لينة ، في منع الوحدة هو عمان . فقد جعل الانكليز من سياسة سبيل ذلك - جميع الاساليب الفاشمة وغير المشروعة ، بما في ذلك التجزئة وتفتيت القوى وتحولها الى أحجار مهمة تنتقل بها بريطانيا الفارات العدوانية المفاجئة وحروب الابادة والتدمير وغير ذلك . وفي مصالحتها من مكان الى مكان . . ديدنها طوال قرنين ونصف من أعمال التكتيل والقهر . كما استخدمت حق تفتيش السفن ، بعد الزمن .

البحث عن الرقيق ومصادرتها لجرد النهم الباطلة بقصد تدمير العرب البخرية وافقار الشعب العربي وسد منابع الرزق أمامها . ولم تتوقف دسائسهم - هذه - في المنطقة حتى اليوم . والعدوان ونحويل القسم الاعظم منه الى خدم أدلاء يرتبط حياتهم بمدى الاثيم على عمان الداخلية جزء من هذه الخطة التي تحاول منع عمان من تقدمونه للامبراطورية البريطانية من خدمات .

خاتمة - فلسفة التجزئة وتفتيت القوى :

قارومت بريطانيا - خلال حكمها الطويل - كل محاولة جديدة لتوحيد المنطقة العربية - وفرض طابع غريب : القوى في جزيرة العرب أو الاتجاه لتحييرها . بل انها قاومت - . . . يحتل الشعب العربي أخطر موقع جغرافي بين الشرق والغرب . . . محاولات توحيد جزء من أجزائها المهمة . وحالت دون تكتل الشرق العربي ثم جرت عمان وتطويعها ولا بد أن يلعب في المستقبل القريب دورا ايجابيا العربي ومزقت مشيخات ساحل الهدنة وفرضت التجزئة على مسقط والمليح العربي وخلفت عددا من الدول الصغيرة الضعيفة سواحل الخليج العربي وخلفت عددا من الدول الصغيرة الضعيفة

وباعدت ما بين هذه الاجراء مؤرجعة ناز العداوة والحرب ، وخلقت وانه لودر خطير مشرق بالنسبة للعرب وللشعوب المحيطة بهم كبرا من الامراء والاتباع الحاضرين ، وفرضت عليهم أحكاما حبيبت الومس قاهر بالنسبة لكل طامع أثيم ، يحصل الروح الاستعمارية التجزئة وأثارت المشاحنات والمصام بينهم وساحت بعضهم بالشريرة من المستعمرين الغربيين القدامى أو من تلاميذهم وأجرائهم بعض ، ثم هرعت لتحيي بعضهم من بعض ولتقيم من نفسها خلاصتها أو من المؤمنين بفلسفة مناطق النفوذ .

ما أمكن . فإذا زرت أيتها القاريء الكريم المؤسسات الاستعمارية في مسقط والبحرين وقطر وغيرها من الامارات والمشيخات . . بل اذا زرت المؤسسات التي تحمل اسماء وطنية ولكنها تنفخ في صفير مفرقة للاكليز والفلسفيين في الحكم . . شاهدت الالاف من هؤلاء الصناع في اكلام من كل بلد غريب . . بعد ان تهرسوا العمالة الذين استقدمهم اكلام من كل رابطة قومية او انسانية ، في خدمة الاجنبي ، ويحروا من كل رابطة قومية او انسانية ، يعطهم بالشعب الذي يشاركون الاجنبي في حكمه واذلاله .

بل والادهي من ذلك ان الاكليز لم يكتفوا بالوظفين والمستخدمين يستقدمونهم من البلاد الاجنبية . . بل فتحوا أسواق البلاد المحكومة للجياليت الواسعة الغربية وسلموها لشؤون التجارة والصناعة ودعموها ضد أبناء البلاد . . فبينما كانت تزداد الجاليات الاجنبية ثراء ونفوذاً كان ينحدر أبناء البلاد . . أكثر فأكثر الى مهوى الفقر والجوع والمرض والذل . .

بهذا الاسلوب . . وهذه الفلسفة الجرمية هي الاكليز العناصر الغربية في الوطن العربي لتشارك الاجنبي في حكم العالم العربي وفرض القيم الفاسدة عليه والترويج للشمارات الكاذبة . . والعمل الدائب ، في الظروف المرحية ، ضد أمانى الوطن الذي تعيش من خيرات . .

وسائد الاكليز - الى جانب هذا وذاك - التفكك الديني والمذهبي والعنصري والاقليمي . . وشجعوا الاقليات على البروز في المجتمع والنظام بها يخالف أمانى المجموع . . والانفصال عن الايمان العام وتشكيل كتائب غير عربية . . عميلة ، مستقلة عن المجتمع ومغايرة لاهدافه وأمانيه .

فإذا اكتشف الاكليز ان لديهم منطقة ليس فيها اقلية دينية أو جنسية أو مذهبية يمكن استخدامها ، لتقوم بشئ هائل الاعمال التخريبية . . خلقوا لها اقلية من العدم بواسطة الهجرة الاجنبية اليها . . أى أنهم بادروا الى استيراد اقلية اجنبية ، ليجعلوا منها أداة طيعة يحكمون البلاد بواسطتها ، ويسلسون قياد الناس بتجسسها حتى اذا ما اشتد المد الوطني ، وأحقق الخطر بالاكليز ، لم يتردوا

فلا عجب ان يلاقي الشعب العربي الباسل أشد مقاومة . . وأمر الحروب العدوانية وأعنفها . . من هنا وهناك . . وأن تتشكل ضربة وحدثة الانسانية الثورية التقدمية وضد حريته كل القوى المتنام الاستعمارية الظاهرة . . أو القوى العمياء الجسالة المتكررة للار انسانية الرفيعة . . والتي تسير - عن علم أو غير علم - في المخططات المنصرية والعدوانية البغيضة .

هذا هو موقف الاعداء من أمة العرب . . ومن وحدتها ، وحرية بصورة عامة . . وانه لموقف حديث نسبياً لم يتطور بشكله العار الصريح الا منذ ما يقرب من نصف قرن بالنسبة للقوى العالمية المعاصرة . . أما بالنسبة للاكليز فقد فطنوا الى الخطر قبل غيرهم نسبياً . . فهم من قرن كامل يحصلون روح العدوان والنشر والمقاومة والكرام للشعب العربي ، كعنصر وكامة . . فقد استشفوا الخطر الذي يكر من نهضته ضد خططهم العدوانية وآثامهم .

وهكذا فان العنصر العربي كان - بالنسبة للسياسة الاكليزية موضع المقاومة والكتب ، وما يزال . لانه : بالاضافة الى ما تقدم ، دوره الانساني التحرري الموعود بمثل - آنيا - شعب البلاد ، والشعب الهيا - دون غيرة - لتحريرها وتطهير أرضها من الشرور فوجه الاكليز اليه جل ضعفهم . . بل حاولوا - في معظم المنام التي دخلوها كمستقط وسواحل الهدنة والخليج العربي - أن يشتم قوى العرب ، وأن يجبروها - بالارهاب والتجوير والكتب - على الهم الى الداخل فيتبددون في فيافي الصحراء ويذوبون . . وشجعوا - الوقت ذاته - هجرة العناصر الغربية (فارسية - هندية - يهودية غورغية - سوداء - أرمنية - آشورية) لتحل محل العرب في بلاد ولكنون اقلية كبرى حاكمة ، أو أكثريات مع الزمن - ان أمكن وهكذا تفصم العناصر الاجنبية الغربية للمنطقة العربية عن العسا العربي الكبير ، وتستأصل الروشائج القومية التي نمت ورست خلال الاف السنين .

واستخدام الاكليز - لتحقيق هذا الغرض - مؤسساتهم العسك والتجارية والصناعية والسياسية ، فشحنوها - أولاً - بأشكال هم الاجانب ، مع اهمال أبناء البلاد واحتقارهم وابعادهم عن كل مسئول

ان أمريكا لم تعر أى اهتمام - طبعا - لآخبار المجازر البشرية التى ارتكبتها انكلترا فى مدن عمان . ولا التفتت الى الاعمال الوحشية التى قام بها الجنود الانكليز والتى أشار اليها نداء امام عمان ، الموجه الى الدول الكبرى ومنها الولايات المتحدة الامريكية .

بل انتبهت بسرعة . . . وبلوؤم . . . الى موقف الدول العربية المنتظر . . . وأبدت تخوفها من أن تطول المعركة . . . فتتيح للدول العربية المتحررة ان تساهم فى المعركة الوطنية لانقاذ عمان . وهذا الاحتمال هو ما كان يثير المخاوف الامريكية دون غيره .

فانكب كبار المسئولين الامريكيين من مساعدى دالاس على دراسة النداء وبحثه . . . وتخمين الاحتمالات التى قد تثيرها فى العالم العربى . . .

كما صرح المتحدث أمريكى رسمى فى اليوم ذاته فقال :

« ان أمريكا ، ترقب - بقلق شديد - تطورات الموقف فى عمان . وان رأى السائد فى واشنطن : هو ان ثورة عمان أخطر بكثير مما كان متوقعا . وان أمريكا تخشى ان يصبح اشتراك الدول العربية الاخرى - فى هذا النزاع - أمرا لا مفر منه » .

لقد تساءل الشرفاء - فى كل مكان - عن الثمن الذى تقاضته أمريكا لقاء مساندتها للجرائم الاستعمارية التى يقترفها الانكليز فى عمان يوميا !! . ولم يكتفوا بمعرفة ما كان قد منح من امتيازات البحث عن البترول والآثار واستثمارها فى ظفار ، للشركات الامريكية .

ولم يطل - بهؤلاء الانتظار - فقد كشفت الانباء عن التسوية الكاملة بعد قليل من الزمن . . . تلك التسوية التى تمت بين انكلترا وأمريكا مباشرة . . . والتى تقاسم - فيها الطرفان ، الحصص فى استثمار النفط والمعادن الاخرى .

ولم يكتف الامريكيون بما حصلوا عليه من شركائهم الانكليز . . . فأجبروهم على ارغام صنيعتهم (سلطان مسقط سعيد بن تيمور) ان يوقع على معاهدة مباشرة بينه وبين الامريكيين ، لتؤكد الامتيازات والتسويات السابقة .

نستخلص من ذلك أن طبيعة الاستعمار العالمى واحدة . . . ومصالحه واحدة . . . لذلك نراه يدعم بعضه بعضا . ولا يسمح

للمنافسة والنزاع القائم بين دوله أو احتكاراته ، ان تحطم حلقات الاستعمار الاساسية . فتضعفه فى النتيجة . . . وتقوى الجبهة المعادية له .

ان عهد المنافسة الاستعمارية القديمة . . . التى كانت تقوم على أساس تدمير المنافس القوى لبقية المنافسين وسحقهم قد انتهت . وجدت ظروف عالمية جديدة . من أهمها ما سبق وأوردناه . . . عن تعاظم حركة التحرر والاتفاق عند شعوب المستعمرات والبلاد المتأخرة . ودخول القومية العربية بنضالها الثورى التقدمى مسرح التاريخ العربى والعالمى . . . كمارد لا يمكن قهره . . . أو تأخير زحفه المقدس .

ان الاستعمار العالمى . . . لن يسمح للخلافات الداخلية - فى ظرفه الجديد - ان تهدد مراكزه الكبرى بالدمار الابدى . وهذا ما يلزمنا على أن نضع فى حساباتنا - دائما - اننا سنكتشف المستعمرين المختلفين المتنافسين وقد اتحدوا فجأة ضدنا . فسند بعضهم بعضا . وخاضوا المعركة الفاصلة مشتركين .

الفصل التاسع عشر العدوان البريطانى فى عام ١٩٥٥

مقدمات العدوان فى عهد الامامين الاخيرين :

ظل الامام محمد بن عبد الله بن خلفان الخليلى يشغل منصب الامامة من عام ١٩٢٠ حتى عام ١٩٥٤ حيث توفى وأنتخب بدلا عنه الامام غالب بن على الهنانى . وهو الذى يقود اليوم معركة عمان الباسلة ضد الانكليز بوعى وبطولة .

لقد سبق وذكرت فى الفصل السابق ان الظروف العالمية وخاصة الحرب الكبرى الاولى أجبرت الانكليز وأجبرهم سلطان مسقط على الرضوخ وتوقيع معاهدة السيب التى اعترف فيها الفريقان باستقلال عمان . . . فالمعاهدة بالنسبة للانكليز مجرد هدنة . . . مرحلة حرجة يخفضون فيها رؤوسهم للعاصفة ، فاذا ما مرت العاصفة ، عادوا للوقوف على قدميهم وتابعوا طريقهم .

وهكذا كان بالنسبة لعمان . . . معاهدة السيب معاهدة محترمة طالما هم ضعاف . أما اذا انتهت الحرب وخرجوا منها ظافرين وأمكن

لهم أن يجمعوا قواهم حول عمان تتحول المعاهدة عندئذ الى قصاصة من الورق .. ويتابعون عدوانهم الغادر وكان لم يحدث شيء .. فلا بد اذا ان نتبين في الفترة الفاصلة بين عامي (١٩٢٠ و ١٩٥٥) تأهب الانكليز للانقضاض على عمان .. أو لا بد لنا ان نكتشف على الاقل مقدمات العدوان .. الغادر .

ولكن لا بد لنا من ان نتناول نقطة أخرى في الموضوع .. وهي ان ظروف عام ١٩٢٠ قد تبدلت في عام ١٩٥٥ .. تبدلت جذريا في عمان .. وفي العالم العربي .. وفي العالم أجمع .
ففي عمان ظهر البترول .. واحمرت عيون الدول الطامعة بنهبه .. وسال لعبائها عليه ..

ففي مطلع عام ١٩٢٣ رفع السلطان تيمور الى القنصل البريطاني في مسقط كتابا يرد فيه على كتاب أرسله القنصل الى السلطان في أواخر عام ١٩٢٢ . وقد تعهد السلطان في كتابه : بأن لا يستغل البترول الذي قد يعثر عليه في أية بقعة تدخل في نطاق أراضيه ولا يمنح حق استغلاله لأحد دون استشارة الوكيل السياسي ودون موافقة حكومة الهند الانكليزية .

وهكذا برز الى مسرح السياسة في عمان عامل جديد هو البترول .. والسياسة البترولية .. والتوسع البترولي .. وما شئت من الالفاظ الماثلة .

وفي سنة ١٩٢٥ منح السلطان لشركة دارسي الانكليزية حق التنقيب عن البترول والغاز الطبيعي . وغيرها من المعادن مع استغلالها ولما طال عليه الانتظار دون ان يفعلوا شيئا منح للشركات الامريكية امتياز آخر للبحث عن البترول في جزء آخر من أراضيه (في ظفار) فجاء جنون الانكليز .. واشتدت المنافسة بينهم وبين الأمريكيين .. ثم ظهرت الدراسات المتعلقة ببترول البوريمي .. واشتد النزاع على الواحة المهجورة .. بين السعوديين ومن ورائهم أمريكا .. وبين سلطان مسقط ومن ورائه انكلترا .. وهكذا برز لعمان ومسقط وظفار والشارقة ورأس الحيمة والبوظبي والبوريمي .. أدوار جديدة .. وأهميات حديثة لم تكن لها فيما مضى .. فتعدل - الى حد ما - موقف المستعمرين من هذه الاماكن واشتد حرصهم لنهب ثرواتها .. فوضع كل مستعمر في حساباته .. الخطط التي تحقق له هدفه .

أما بالنسبة للوطن العربي فقد تبدل فيه كل شيء تقريبا . وخاصة بالنسبة لبريطانيا .

فقد تنبته الامة العربية وانطلق ماردھا السجين من عقاله . وتعاطم نضالها الثوري . وتحولت وحدة العرب من دور الاحلام الى دور التحقيق والتجسد .. وولدت الجمهورية العربية المتحدة ، قائدة النضال التحرري في بلاد العرب . وبعث البطل الذي استقطب حوله أشرف القوى في المجتمع العربي المتيقظ الطموح . وشعر العرب من أقصى المحيط الى الخليج وعمان ومن طوروس وكيليكيا حتى عدن وسقطرت بحقيقة هذا المارد البطل .. يبعث وينمو في عقل كل فرد عربي .. وفي وعيه وارادته .

وأما بالنسبة للعالم الخارجي فقد تطور كل شيء أيضا .. وخاصة بالنسبة للاستعمار الانكليزي ..

تحررت الهند وباكستان وبورما وسيلان .. ونمت حركة التحرر والانعقاد في كل مكان من العالم . وتنبته الشعوب الى أخطار الاستعمار وولايات المستعمرين .. لا سيما اذا تعاونوا ووجدوا جهودهم ، على اختلاف جنسياتهم ضد الشعوب الطامحة الى الحرية .

واكتشفت الشعوب أهمية تعاونها واتحادها للقضاء على جرثومة الاستعمار ..

فدفعت كل هذه العوامل الاساسية بالاستعمار الانكليزي المهزوم في كل مكان .. لتمكين برائته في عنق جنوب شرق جزيرة العرب .. وحرصه على مد برائته الى المناطق الداخلية المستقلة منها . ليتخذ منها معقلا أخيرا .. وقلعة يدفع منها العدوان .. وميدانا لاستغلال البترول والثروات الاخرى .

وفي هذه الفترة الممتدة من عام ١٩٢٠ حتى عام ١٩٥٥ .. استطاع الانكليز أن يستخدموا سلطان مسقط كالدمية في أيديهم لتحقيق هذه الاغراض الحبيثة .. فلا بد لنا من العودة أيضا لدراسة تاريخ عمان ومسقط في عهد الامامين الاخيرين واكتشاف أساليب المستعمرين وخادهم سلطان مسقط .. مع القاء النور على سلوك الامامين في الوقت ذاته :

الامام محمد بن عبد الله الخليل :

ينتمي الامام محمد بن عبد الله الى بيت الخليل المعروف والذي يتصل نسبه باليعاربة .

تم في عهده صلح السيب - كما سبق وذكرنا - بموافقة الانكليز . الذين كانوا أكثر من وسيط لانهم قادوا - في مسقط - حملة مقاومة الامامة . وابتكروا حملة الدسائس والمؤامرات . واشتركوا عسكريا في رد قوات الامام عن مسقط ومطرح .

ساد في عمان فترة هدوء امتدت أربعة وثلاثون عاما ، انصرف فيها الامام الى شئون امامته ينظمها ويحميها . ولكن الهدوء الظاهري كان يخفي وراءه كثيرا من دسائس الانكليز ومكر السلطان سعيد بن تيمور الذي خلف أبيه ولكنه فاقه في الحيانة والغدر .

فقد ارتقى السلطان سعيد نهائيا في أحضان الانكليز وسلمهم قياده بصرف النظر عن كل اعتبار آخر . وسلطهم على منطقة نفوذهم . ولم يعد هو ليتدخل في أبسط الامور ، خلافا لمشيئتهم .

أما نشاطه الشخصي فقد صرفه لتدبير الدسائس ضد شعب عمان الباسل - محاولا بذور الفرقة واثارة النزاعات بين القبائل مطبقا سياسة أسياده الانكليز (فرق تسد) . لقد أدرك أن استمرار اتفاق القبائل واتحادها . وتحقيق وحدة الشعب حول أئمتة ومثله القومية كفيل بالقضاء على كل أمل له في اذلال الشعب العربي في عمان مرة أخرى .

لقد حاول أبوه تيمور سياسة مماثلة تقريبا الا وهي سياسة الاغتيال . فأرسل عصابات من المجرمين اغتالوا أكثر من سبعين رجلا من أشرف العناصر وأشدّها تعلقا بالامام . ولم يجن من عمله هذا غير الجزى ولعنة الاشراف والمؤمنين من عرب عمان .

فلما عمد سعيد الى سلوك مشابه . أصابه الفشل . ولم يجن بدوره غير اللعنة والاحتقار . وظل شعب عمان آمينا على مثله وتقاليده متحدا على أعدائه . حريصا على استقلاله .

حاول سعيد أن يصل الى هدفه في اذلال شعب عمان عن طريق الرشوة . فأنفق الأموال الباهظة وأعطى الاعطيات الكبيرة الى من لا يستحقها . في حين يعيش الشعب العربي في سواحل عمان على الفاقة والجبل والمرض . فلم يجن من هذه الوسيلة غير اللعنة والغضب أيضا .

وعندما توفي الامام محمد طار السلطان والانكليز فرحا . وظنوا ان فرصتهم قد حانت . فخبى شعب عمان الباسل ظنونهم ولطمهم حين أنتخب الامام الجديد غالب بن علي قبل ان يدفن الامام الراحل . تبخرت أحلامه وطاش صوابه فلجأ الى أسياده الانكليز يطلب منهم استخدام القوة . لتحقيق أحلامه . أو قل أحلامهم . فما هو - في الحقيقة وواقع الامر - الا آلة خرساء في أيديهم . وخادما ذليلا من أحقر خدامهم .

الامام غالب بن علي الهنائي :

ينتمي الامام غالب بن علي الى قبيلة بنى هناء التي تنتسب بدورها الى اليعاربة أيضا . أنتخب في آخر شعبان عام (١٢٧٣ هـ و ١٩٥٤ م) بعد وفاة الامام الخليل وقبل ان يدفن .

والامام الحالي هو القائد الاعلى للمجاهدين العمانيين الابطال . يقود المعارك ، وينظم المقاومة . ويهيئ الاسلحة والاغذية واللبسة والاموال . ويلم شتات الشعب حول المثل القومية والدينية . وهو بعيد عن عاصمته وعن بيته . ينتقل مع المجاهدين بين المعازل الجبلية .

كانت بريطانيا تنتظر موت الامام السابق . لتحقيق أهدافها الجديدة . في فترة موته حيث يتاح لها ان تثير النزاع والفوضى خلال عملية الانتخاب ، فتنقض على عمان وتحتلها . وقد هيأت الجيوش والمعدات والقواعد . لهذا الغرض . ولكن شعب عمان كان أبرع منها . فقطع عليها جميع الخطوط . واستبق الحوادث فانتخب أمامه الجديد . ولم يسمح للخلاف أو النزاع أو الفوضى أن تدخل صفوفه . لقد نبه هذا الفشل كوامن الحق والانتقام في نفوس الانكليز .

وأقنعهم أن أسلحتهم القديمة قد انثلمت . ولم يعد لها من وزن في المعارك الجديدة . لهذا عزم على أن تكشف القناع عن وجهها وان تخوض معركة مكشوفة ضد استقلال عمان . قبل ان يتقوى الامام الجديد . ولم يسمح للخلاف أو النزاع أو الفوضى أن تدخل صفوفه .

كانت بريطانيا - في فترة ما بين الحربين العالميتين الاولى والثانية . تتحسس مواقع أقدامها في كل مكان من الامبراطورية . فأدركت ضعف مواقعها في الهند ومصر والسودان . والعراق . فوجهت أنظارها الى سواحل عمان والخليج لتتخذ منها معقلا يلجأ اليه نفوذها

المتداعى .. وقلعة تركز فيها قواتها المهزومة . بحيث تستطيع الاعتماد عليها فى الازمات العالمية الكبرى .

يضاف الى ذلك ان أهمية البترول قد برزت فى العالم كله وأصبحت استراتيجة البترول توجه الدول .. وتسبب الحروب .. وبما انه قد تأكد وجود البترول فى عمان ومسقط والسواحل العربية الاخرى .. بغزارة تغرى الطامعين . وبما ان دولا كبيرة قوية قد نزلت الى ميدان المنافسة كأمريكا . وصممت على امتلاك منابع المهمة للبترول فى المنطقة .. وبما ان أمريكا أغنى من الانكليز وأكثر قوة ومغامرة واستعدادا . وأصبح لا بد للانكليز ان يغامروا بدورهم .. ولو أعلنوا الحرب لحماية الآبار والنابع الباقية .

وبما ان الحركات التحررية العربية .. والانتفاضات الوطنية لم تعد خافية .. أو سرية .. أو ضعيفة ، بل امتد لهيبتها - هنا وهناك - من وطن العرب ، وأخذ يهدد - جديا - باجتثاث الاستعمار وأعوانه من المنطقة اجتثاثا .

فقد عضت بريطانيا على مناطق نفوذها بالنواجز .. وكشرت عن أنيابها السامة ، وكشفت عن أحط ما لديها من الوسائل لمحاربة هذه القوى المتجمعة فى الأفق . والتي تهدد مصالحها بالزوال .

ونظرا لمرونة سياستها ، استطاعت ان تسوى معظم خلافاتها مع المنافس الدولى الاقوى - أمريكا - بعد ان اقتسمت معها هذه المصالح .. والتفتت الى شعب المنطقة لتسوى حسابه بطريقة أخرى .. بالنار والصواريخ والذهب .. فتقضى - بذلك - على خطره .

وفى سبيل ذلك أنشأت عددا من القواعد البحرية والبرية والجوية .. ومن هذه القواعد المتناثرة فى وطن العرب الواسع أو فى المناطق الاجنبية المطلة على سواحله . بدأت تطلق أسنة العدوان .. لتلهب ظهور المقاومين العرب فى عمان .. وفى غير عمان .

وبريطانيا لا تتردد عن القيام بأحقر أدوارها ضد الشعوب التى تحكمها ان استطاعت . وقد برهنت الحوادث - فعلا - خلال الحرب العالمية الثانية وما بعدها على ذلك . يضاف الى ما تقدم ان الحرب الاخيرة قد أكدت أهمية المواقع العربية فى جنوب شرق جزيرة العرب وخطورتها بالنسبة لتحرر العرب من جهة .. وبالنسبة لمواقع دفاع المستعمرين من الجهة الاخرى .

ان القواعد والمطارات التى تقع فى الارض العربية ، والتى بنيت بالسواعد العربية عن طريق السخرة .. فجبلت أرضها بدماء العمال العرب وعرقهم . والتى ضمت بين طياتها آلاف الذين ماتوا تحت السوط .. فى أحقر ظروف للعمل وأشدّها قسوة . انما أقيمت رغما عن ارادة الشعب العربى .. وبقصد اذلاله ، وكسر شوكلته ومحو مقاومته .

والحكومة الانكليزية امعانا منها فى افقار المنطقة وتعريضها للمجاعات ، فرضت حول عمان حصارا اقتصاديا محكما . لعزلها عن العالم العربى . ولابعادها عن أحداثه الكبرى . ولمنعها من الاستفادة بمنجزات حضارة الغرب وعلومه . ولافقار شعبها بتهديم صناعته وتجارته وزراعته . ولاضعافه ماديا بمنع ايصال الاسلحة اليه وتشديد البحث عن الاسلحة ومعاقبة المتاجرين بها .

فلما هب الامام الباسل غالب بن على ليحارب هذه السياسة الماحقة . وليفكك قيودها .. وأبى قبول هذا الوضع الذى يراد به اجبار عمان على الركوع على ركبتها امام الوحش الاستعمارى الطامع . وشرع الامام - بدافع من وعيه وارادته الحديدية واخلاصه - يتصل بالعالم العربى المحيط به ، وبدأ يفكك طوق الحصار من حوله ، بعزم واصرار . ويمكن لشعبه من أن يستمد العون والقوة من أشقائه العرب .

جن جنون الاستعمار الانكليزى . فكشف عن نواياه الاجرامية ، مرة واحدة .. ودفع بخادمه الذليل سعيد بن تيمور لمناهضة الامامه .. والتطاول عليها .. واتهامها بأنها تتصل بالاجانب .. (ويقصد الحائن سعيد بن تيمور بالاجانب) الشعب العربى من المحيط الى الخليج .

أما ان سعيد بن تيمور وعائلته قد ترعرعوا فى بيوت الذل والعبودية .. وظلوا يتمرغون على أقدام الاجنبى من المهد .. الى اللحد .. ويعفرون جباههم على أعتابه . فلم يكن يثير أى اهتمام لديه ..

وهكذا فإن محاولة الامام الشجاع .. الخروج بشعبه العربى المؤمن من عزلته .. وذلك عن طريق توثيق علاقات الامامة بجامعة الدول العربية . واقامة نواة جيش عربى حديث وتسليحه .. كانت من أهم العوامل التى أخرجت الاستعمار عن طوره . ودفعته الى القيام

بعدوانه المبيت الاثيم ، مستخدما أحط الوسائل وأكثرها وحشية وقسوة . مستهينا بقيم هيئة الامم المتحدة . ومبادئها . وبشرية حقوق الانسان . وبمبدأ حق تقرير المصير . وبكل القوانين والقواعد التي أملتتها الحضارة .

العدوان البريطاني الغادر عام ١٩٥٥ :

بعد فوز ثورة مصر التحررية في يوليو ١٩٥٢ ، التي أطلقت ٢٥ مليون عربي من أرض الكنانة من عقالهم .

وبعد محاولة تأميم البترول الايراني . وظهور البترول العربي وبعد تفكك الامبراطورية البريطانية . وهزيمتها في شتى المواقع .

وبعد تعاضل حركة التحرر والانعقاد ومكافحة الاستعمار في العالم . وبعد ظفر القومية العربية . وسريان شعاراتها المحبة الى أعرق بقاع الوطن وأبعدها .

وبعد خروج امام عمان من عزلته وتوثيق علاقات شعبه بالامة العربية .

بدأت بريطانيا تنتبه الى ما يجري حولها . وتتبين مواقع أقدامها . وتبحث بياس وحقد . عن ملاجئ جديدة تلملم فيها قواتها المشتتة . لقد سددت الامة العربية . وشعوب آسيا وأفريقيا ضربات قاصمة موفقة الى الاستعمار ، بعد انتهاء الحرب ، وخاصة الى الامبراطورية البريطانية وحلفائها الامريكيين والفرنسيين . وأخذت المصالح الاستعمارية تنهار في هاتين القارتين العظيمتين بفضل حركات التحرر العارمة ، في العالم العربي . وفي الصين والهند واندونيسيا ، وفي القارة السوداء الملتهبة .

.. وطردت مصر انكلترا من القناة . وألغيت القاعدة البريطانية فيها .

فأذهلت هذه الاحداث المتلاحقة الخطيرة بريطانيا وأربكت مواقعها في الشرق الاوسط . فمالت الى السقوط . والزوال . فأخذت تبحث عن رد استعماري يوقف هذا الخطر . أو يحدد مناطق انتشاره . ويسند المراكز الباقية للانكليز .

وبحث الانكليز عن مواقع جديدة ينقلون اليها قواتهم المطرودة من

مصر . . لكي يتخذوا منها مراكز انطلاق عدوانية تعوض عن قاعدة القتال . فتوجهوا الى عمان . في جنوب جزيرة العرب . وتوجهوا الى قبرص في البحر المتوسط . وخيل اليهم استطاعوا ان يكتشفوا الحل . وان يطوقوا مصر والعالم العربي . وحركة التحرر العارمة في المنطقة من الشمال والجنوب .

وكانت ضربة الانكليز الاولى الغادرة ، موجهة الى عمان المستقلة البطلة . كمحاولة يائسة لتحقيق نصر سريع رخيص . يعيد للاستعمار الانكليزي اعتباره المطلخ بالوحل ، في بلاد العرب . فكان العدوان الغادر في عام ١٩٥٥ .

التهديد للعدوان :

في عام ١٩٥٣ ، كانت شركة البترول الانكليزية قد بدأت أعمالها التمهيدية للتنقيب عن البترول في مسقط . فبدأ الاستعمار يتخفى وراء هذه الشركة ويتستر بمصالحها . لتحقيق الاجراءات الممهدة للعدوان الحبيث بدون ان تثير تلك الاجراءات ضجة محلية أو عالمية . فقد زعمت الشركة انها لا تستطيع العمل بدون جيش يحميها . فأخذ جهاز الاستعمار الانكليزي وجيشه القديم والحديث يخطون معها نحو الداخل خطوة بعد خطوة .

زعمت الشركة انها بحاجة الى جيش خاص بها . تتولى انشاء حديثا . فوافق سلطان مسقط على طلبها . وبدأت بتنفيذ ذلك في مدينة (فلج القبائل) الكائنة على أبواب مسقط . وسميت القوة الجديدة ب « قوة ميدان مسقط وعمان » .

وفي شهر يوليو من سنة ١٩٥٣ وصل الى مسقط ضابط بريطاني برتبة ميجر هو (ماك جل) يحمل رسالة من السلطان سعيد بن تيمور الى نائبه شهاب بن فيصل يأمره بالتعاون مع الضابط المذكور لتكوين معسكر . ونواة جيش متنقل يحمي الشركة . وبدأت البواخر تنزل العتاد والذخيرة . وتكون الجيش ثم ركز أعماله في بلدة (فلج القبائل) الاتفة الذكر . وأخذ الضباط الانكليز يتواردون تباعا الى مسقط بحجة تدريبه .

رأى المستعمرون ، انه لا يمكن السطو على ثروة عمان ذات التاريخ الاستقلالي المجيد الا بالقوة والقهر . والجيش الجديد يحقق للاستعمار ذلك .

ورأى المستعمرون ان بناء القلعة الجديدة في عمان ، لمقاومة الحركات الوطنية العربية ، ولم فلول جيوش الامبراطورية المفككة .. لا يتم الا بالقوة والقهر .. وهذا الجيش الحديث ، يحقق لهم ذلك أيضا . اذا فليبدل المال بسخاء ، لتقويته وتسليحه .. وهكذا كان .. فان هذا الجيش الذي أنشئ بحجة حماية الشركة .. هو الذي تقدم مع قوات مسقط ومع القوات الانكليزية الاخرى لاحتلال نزوى عاصمة الامامة بعد سنتين من تأليفه .

خطط الغزو :

كانت الخطة التي وضعها المستعمرون وأعوانهم ، خطة طويلة الاجل ، ومرسومة بدقة وناة .. لا لتنفذ دفعة واحدة . بل ليتيم تنفيذها على مراحل .. وفي الاوقات المحددة .. بحيث تحقق للمستعمرين ما يريدون .

ففى أوائل عام ١٩٥٤ ، بدأت المرحلة الاولى لخطة المستعمرين .. اذ أمر الجيش الجديد ، بالانتقال بحرا الى ميناء صغير يقوم فى الجنوب .. ويجرى انشاؤه على عجل .. يسمى (رأس دقم) . كما نقلت الى هناك جميع المعدات والاسلحة والذخيرة . ووصلت البواخر الانكليزية تحمل الباقي من العتاد للجيش .

وفى هذا الميناء - بالذات - تم تدريب الجنود - على عجل - وأصبح هذا المقر مركزا للقيادة العامة . وأخيرا ، وبعد ان تم التدريب ، بدأ الانكليز ينتقلون الى تنفيذ المرحلة الثانية . فزحف ثلثا الجيش بالسيارات ، يحمل عتاده الى عمان الداخلية . فاحتل مدينة عبرى عنوة ، بدون سبب ، وبدون سابق انذار أو مقدمات . فى أواخر عام ١٩٥٤ .

وبعد ان تم لهم احتلال مدينة عبرى شرعوا يهيئون الظروف للانتقال الى تنفيذ المرحلة الاخيرة الا وهى الزحف العام ضد الامامة .

الزحف الفادر على عمان الداخلية :

فى ١٥ ديسمبر ١٩٥٥ ، وبعد ان تهيأت للانكليز ظروف الغزو زحفوا بكامل قواتهم الى العاصمة نزوى ، بدون سابق انذار ، وبصورة مفاجئة غادرة ، مستخدمين فى هجومهم الصواريخ والطائرات وجميع آلات الدمار . فاحتلوها بعد مقاومة بطولية ، أبدتها شعبها الباسل .

لقد كان الزحف العدوانى المفاجئ عاما ، وفى وقت واحد . فقد هاجم الانكليز عمان من خمس جهات ، ليلبلوا قوات الامامة . وليشتتوا أنصارها . ولكى يربكوا خطط دفاعها .

ولم يكتف المستعمرون بكل ما وصلوا اليه من عدوانهم . بل طمحو الى المزيد من السيطرة وخنق الحريات فاقاموا فى كل منطقة من أرض عمان حامية انكليزية . وجعلوا عبرى مركز الحاميات القيادى ، بعد مسقط . فوضعوا حامية فى (نزوى) وثانية فى (سمائل) وثالثة فى (بدبد) وأخرى فى (طوى سليم) . وسلموها - بالاضافة الى مهام الجيش - مهام الشرطة المحلية ، ليحموا ظهور القوات العسكرية الاساسية ، وليمكنوا موظفى الشركة من تنفيذ أعمالهم .

ولم يكن الهجوم العدوانى المباغت على عمان خطة مستقلة ، عن الخطط العدوانية الانكليزية الكبرى ، التى ينفذونها فى مختلف أجزاء العالم العربى . بل كانت جزءا مهما من تلك الخطط ، تربطها بها أوثق الروابط . وفى الوقت الذى كانوا يهاجمون فيه عمان ، كانوا يهيئون قواهم فى البحر المتوسط للقيام بعدوان آخر ضد الامامة العربية .

وقد انكشفت هذه الخطة الموحدة حينما هاجموا - مع حلفائهم - بورسعيد والقنال بعد عشرة أشهر ونصف فقط من بدء العدوان على عمان . وهكذا انكشفت جوانب المؤامرة فى الشمال وفى الجنوب ، وتأكد لكل عاقل ان معركة الاستعمار ضد الامامة العربية ، معركة واحدة .. ولكنها متعددة الجوانب . وما زحف الانكليز الفادر على عمان ، والعدوان الثلاثى الاثيم على بورسعيد الا جانبين لمعركة واحدة لقد فشلت خطط الاستعمار فى مصر واندحر المعتدون فى بورسعيد وعادوا الى أوكارهم يجر جرون أذيال الخيبة . وانتهزت معنويات العدو فى سوريا ، وافتضحت مؤامراته المتعددة عليها .. ونمت الوحدة بين القطريين .. ولكن المعركة فى الجنوب ما تزال قائمة . فكان من نتائج فشل المستعمرين فى الشمال ، انهم شددوا الحملة فى الجنوب . واستعملوا كل الوسائل الاجرامية ، لعلهم يعرضون بعض ما خسروه من هيبة . فجندوا ما لا يقل عن مائة وخمسين ألف جندى مزودين بأحدث الاسلحة وبالحد والتعصب ،

«أفلتوا كالوحوش الضارية ، على المدن والقرى الآمنة العزلاء ..
فأخذ الوحوش يقتلون ويحرقون ويدمرون ويقتلعون الزروع ويظفرون
أقنية الري .. وكأنهم ريح الموت تشيع اليبس أينما هبت ..
ولكن الشعب العربي في عمان ، كان - منذ القديم - وما يزال ،
مزودا بأكثر قدر من الصلابة وعمق الإيمان .. فساروا كالفدائيين -
تحت لواء أمامهم البطل (غالب بن علي) ، وأخذوا ينزلون بالمستعمرين
الخسائر الفادحة .. فأرعبوا المستعمرين وبلبلوا صفوفهم ، وأفقدوهم
الثقة بأنفسهم ..
وإذا بالبلاد التي زعموا أنهم سيخضعونها في ثلاثة أيام ، تحاربهم
منذ أربع سنوات .. دون أن تلبس لها قناة ..

جنون الدعاية الاستعمارية وأكاذيبها :

حالما شن المستعمرون غاراتهم المفاجئة ، وقاموا بعدوانهم الآثم ،
واحتلوا العاصمة نزوى ، بدأت أبواب دعايتهم تجار بالأكاذيب ..
وشرعت الصحف البريطانية والاذاعات والكتب ومختلف وسائل
الدعاية ترجف وتفتري زاعمة : ان المعركة قد انتهت وان الامامة قد
ألغيت ..

ولكن لم تمض على هذه الأكاذيب أيام .. حتى كانت المقاومة
قد عمت أنحاء عمان .. فالتهمت الأرض ، تحت أقدام المعتدين ..
وذهبت أحلامهم بددا ..

زعم المستعمرون أنهم لم يحاربوا عمان .. وانما كان أجبرهم ،
سلطان مسقط هو الذي يحارب لـ « توحيد البلاد » وبما ان السلطان
سعيد بن تيمور ، صديق قديم لهم .. فلا بد ان يتدخلوا لحمايته ..
والا فأين تكون الصداقة ؟

وهكذا فقد تدخلوا .. لا لشيء .. ولا لغرض خاص بهم .. وانما
لجرد حماية « صديقهم » ..

وما قصة هذه الصداقة ، التي تخوض بريطانيا ، من أجلها الحرب ،
الا أسطورة جديدة من جملة أساطير الاستعمار .. يريد ان يبرر بها
جرائمه التي لا يمكن ان تبرر ..

ان بريطانيا المستعمرة .. (العجوز المتصابية) ، بعد ان فقدت
تفوذها واعتبارها في كل مكان .. وبعد ان ترعزت دعائمها وترنحت
وآلت الى السقوط ، أخذت تتشبث بكل شيء .. كالغريق .. لعل

تشبثها هذا ، يسند صرحها المنهار .. فكانت حملة الدعاية ونشر
الأكاذيب من جملة ما تشبثت به ..

ولكن هذا الاسلوب لم يجدها شيئا .. فأغراضها الحقيقية التي
تود اخفائها وراء سيل من الأكاذيب ، قد افترضت .. ولم يعد هنالك
ثمة قوة تستطيع ان تضلل الناس وان تخفي هذه الشرور ..

وقد تولت معظم الصحف العالمية - حتى في البلاد الاستعمارية -
فضح هذه الاسطورة مع الكشف عن السبب الحقيقي للعدوان :
نشرت صحيفة نيويورك تايمز في ٢٧ يوليو سنة ١٩٥٧ مقالا
بعنوان « الحاكم الذي يريد البترول ، سعيد بن تيمور » قالت فيه :

« في الشرق الاوسط نوعان من الحكام ، الاغنياء بالبترول ..
وأولئك الذين يريدون الاغتناء بالبترول .. والسلطان سعيد بن تيمور
من الفريق الثاني .. والحقيقة ان آماله هذه تقاسمه فيها الحكومة
البريطانية وشركات البترول الامريكية والانكليزية .. مما جعل
حياته معقدة ومشاكله خطيرة .. وهذا هو الذي دفعه لان يطلب من
(أصدقائه) المقربين من رجال سلاح الطيران الملكي ، الهجوم على
حصون امام عمان الشيخ غالب بن علي .. فمند عامين ورجال شركة
بترول العراق البريطانيون ينقبون في عمان .. ولكن امامها وأتباعه
يهددون السلطان فيضطر للجوء الى البريطانيين من وقت لآخر لخصر
الامام في منطقته ، واذا ما نجح الامام في هذه المرة .. فان السلطان قد
يفقد البترول وكذلك تفقده شركة بترول العراق » ..

فالبترول اذا ، هو السبب وليست صداقة سعيد بن تيمور ..
تقول النيويورك تايمز أيضا :

« والسلطان سعيد بن تيمور ليس غيبا لينسى هذه الحقيقة .. بل
هو يعي هذا ويعرفه .. ويتعاون معهم على هذا الاساس .. وثقافته
غربية وهو يقرأ الصحف الانكليزية والامريكية بانتظام .. وهو يعلم
أيضا انه اذا فقد عمان فسيفقدها الانكليز معه بل سيفقدون معها
البريمي .. واذا فقدوا البريمي ، يفقدون المشيخات التي تسيطر
عليها بريطانيا والتي تجاور السلطان من الشمال .. وستكون السيطرة
البريطانية على الكويت والبحرين معرضة للخطر والتهديد .. ويمكن
ان تقع منطقة الخليج كلها في أيدي العرب » ..

وشرحت جريدة لوموند الفرنسية خطة انكلترا في عددها الصادر في ٢٨ يوليو سنة ١٩٥٧ بما يلي :
« أولا : تركيز عمليات السلاح الجوي البريطاني على قوات الوطنيين العمانيين .

ثانيا : تحصين واحة البريمي حتى لا تتسرب اليها قوات المواطنين
ثالثا : احتلال عمان الداخلية .. بعد ان يكون سلاح الطيران قد شنت شمل الوطنيين .

رابعا : قيام الاسطول البريطاني بحصار الشواطئ وغلق الخليج العربي لمنع تسرب الاسلحة للوطنيين » .

والحقيقة التي لا يمكن اخفاؤها ان بريطانيا ذاتها اضطرت أخيرا لتكذيب نفسها فاعترف بسبب الحملة الحقيقي .

قال سلوين لويد في مجلس العموم البريطاني :
« ان كل ما نقوم به من أعمال ضد شعب عمان . هو تأكيد للصدقة والمودة التي تربطنا بسلطان مسقط »

فلما سأله أحد نواب المعارضة :
« هل هذه الصدقة تكلف بريطانيا التضحية برجالها ؟ »

اضطر سلوين لويد للاعتراف بالسبب الحقيقي فقال :
« ان بريطانيا ستفقد نفوذها في الخليج وجنوب جزيرة العرب اذا لم تقم بمساندتها للسلطان » .

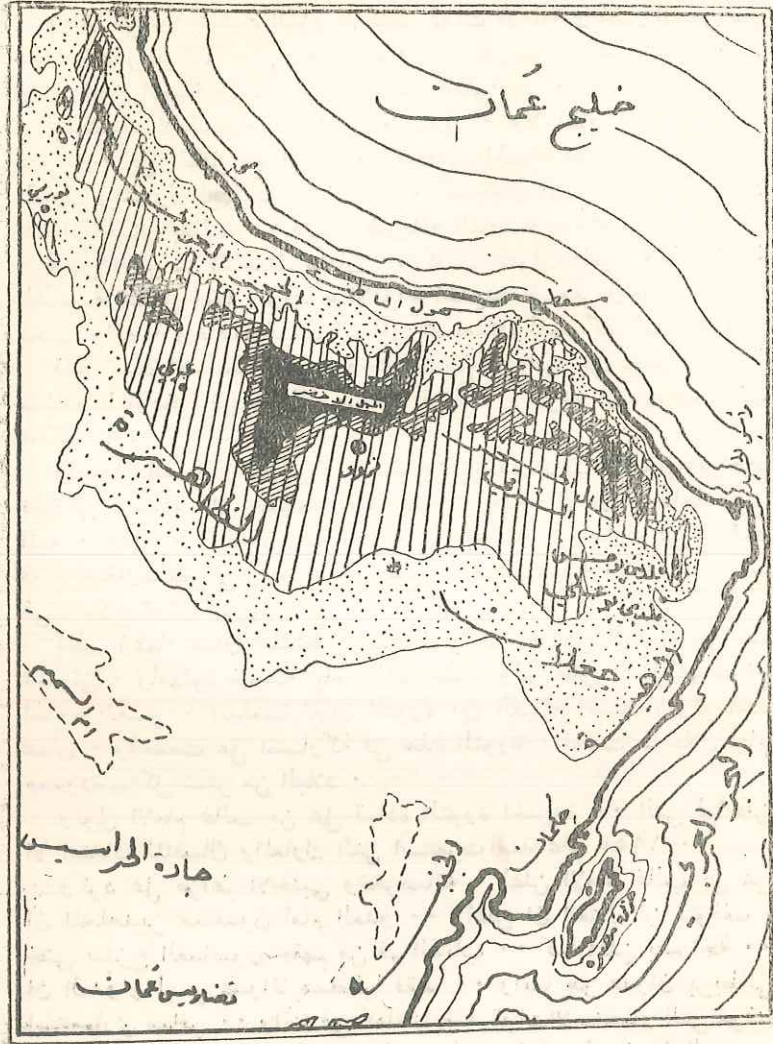
فالمحافظة على مصالح بريطانيا اذا وحماية نفوذها في الخليج .. هما السبب لا صداقة سعيد بن تيمور .

الفصل العشرون

ثورة يوليو لعام ١٩٥٧

بعد ان قام الانكليز بشن عدوانهم الغادر في عام ١٩٥٥ واستطاعوا بزحفهم المفاجيء ان يحتلوا كثيرا من مدن عمان . تحول المناضلون العمانيون الى المعازل التي لم تسقط في يد العدو ، والى الجبال المنيعه ، وخاصة في الجبل الأخضر ، يشنون منها المعارك « على طريقة حرب العصابات » على القوات البريطانية ، حتى دوخواها . ولبلوا خططها (١) كما أفقدوا شركة البترول الراحة والطمأنينة وعطلوا أعمال الشركة في عمان الداخلية .

لاحظ خريطة تضاريس عمان ص ٢٠٣



وبدلاً من أن يشمت الغزو الاجنبي قوات الامامة ويفض الناس من حول الامام - كما خيل للمستعمرين ولا جبرهم سعيد بن تيمور - ازداد تعلق العمانيين بالامام وتضاعف احترامهم له . ذلك لان الامام لم يستسلم لانكساره في المعركة الاولى . ولا أطار الفشل الاول صوابه . بل انتقل مع الثوار الى معاقلم الجبلية المنيعه وأخذ يوجه المعارك ويشارك فيها - أسوة بالائمة الشجعان الاولين - وهكذا زاد اعتداد الجيش بقائده . . . فأنزل ضرباته القاصمة بالمعتدين . وظل الامر - كذلك - عامان . . . كانت القوات العربية العمانية الشعبية تتكفل فيها ، وتهرج الافواج الجديدة الى مقر الامام لتنضوى تحت لوائه . وخاصة قوات القبائل استعدادا للمعركة الفاصلة . فلما تمت الاستعدادات . وجه الشيخ ابراهيم بن عيسى الحارثي سؤاله التاريخي الى سلطان مسقط قائلاً : « نريد ان نعرف كيف تحكمنا ؟ »

وأرسل السلطان الماكر (سعيد بن تيمور) الى الشيخ ابراهيم الحارثي ، يدعو الى مسقط للمفاوضة ، ومنحه الامان . فلما ذهب اليه . غدر به السلطان - كعادته - واعتقله . وحاول في الوقت ذاته اعتقال شيخ بني ريام . فلم يفلح . فعجلت عملية الغدر - هذه - في اندلاع نيران الثورة .

أنذر زعماء عمان السلطان مطالبين باخلاء سبيل الشيخ ابراهيم الحارثي . وأمهله خمسة أيام ، فلما مضت ولم يطلق السلطان سراح أسيره الكبير . اندلعت نيران الثورة بين القبائل ضده ، وتوحدت عمان . وأجمعت على المشاركة في هذه الثورة . فعمت - خلال أيام معدودة - كل شبر من البلاد .

وتولى الامام غالب بن علي قيادة الثورة الجديدة . . . التي لم تكن الا امتداداً للنضال والمعارك التي استمرت منذ عام ١٩٥٥ . وكرد على مزاعم الاجنبي وتخريصاته . أعلن الامام غالب بن علي ان المجاهدين صامدون أمام العدو . . . وأعلن ان القتال لن يتوقف ، حتى ينتزع العمانيون حقهم من فم الذئب . . . كما أعلن بصراحة . . . ان العدوان ليس عدواناً مسقطياً فقط . . . وانما هو عدوان بريطاني استعماري سافر . . . وانا في كفاحنا ضد قوات الاستعمار التي تفوقنا عدة وعدداً ، نعتد على مساعدة العرب لنا ومؤازرة أحرار العالم . بدأت الثورة بقيادة الامام غالب بن علي وأخيه طالب بن علي .

فهاجما جيش السلطان والقوات الانكليزية التي تقاتل معه في ١٩ تموز (يولية) ١٩٥٧ ، وكان الضابط البريطاني (بل تشسمان) يقود القوات المعادية ، فهزم امام قوات الشعب العماني في شوارع نزوى رغم انتصار الامام عليه . فأرعب الموقف سعيد بن تيمور فطلب النجدة البريطانية في اليوم ذاته .

واضطر أحد المسؤولين الانكليز بأن يعترف ان الوطنيين العمانيين يسيطرون على المنطقة الداخلية في عمان ، وان قوات السلطان قد تكبدت خسائر كبيرة أثناء المعركة التي دارت بينها وبين قوات الوطنيين .

وسرى الرعب من قلب سلطان مسقط الى قلب الحكومة الانكليزية وخافت من ان يتحول النصر الذي أحرزته الثورة العربية في عمان الوسطى الى نصر شامل . فاضطربت الحكومة الانكليزية في لندن وتناقلت أسلاك البرق والصحف والاذاعات ، أخبار عمان الباسلة . ودارت المناقشات في مجلس العموم البريطاني ، فأعلن سلووين لويد : عن عزم حكومته علي الرد - بقسوة ، علي الثورة وقال : « ان القوات البريطانية قد تحركت . . . وان سلطان مسقط قد طلب المعونة منا فأجيب الى طلبه » .

وفي ٢٤ تموز (يولية) ١٩٥٧ بدأت القنابل الصاروخية البريطانية بغاراتها الوحشية على المعقل التي يحتلها الامام وقواته . واهتزت الامة العربية لسماع أخبار العدوان البريطاني الجديد . وقامت المظاهرات، الصاخبة وعقدت الاجتماعات وطيرت الاحتجاجات الصارخة من المحيط الاطلسي حتى الخليج العربي ، مطالبة بتقديم المعونة الجديدة الى عمان .

وتحقق للملا العربى ، ان معركة عمان انما هي معركة العرب قاطبة وان على بريطانيا - لكي تستطيع اخضاع الشعب العربى في عمان - ان تخضع العرب في جميع أقطارهم .

ومادت الارض تحت أقدام الانكليز . . . في كل موقع لهم على سواحل الخليج . ففي البحرين بلغ الهياج ذروته . وفي قطر وفي الكويت وفي عدن . . . وفي اليمن الجنوبية والعراق . . . وفي كل مكان . . . ارتفعت الاحتجاجات ونشبت معارك الشوارع ضد المحتلين .

وشرع الانكليز ينقلون قواتهم على عجل ، من قبرص وكينيا

والبحرين ومن المستعمرات الاخرى ، لتعزيز قواتهم المضعضة ، بعد ان أصابها الارتباك والتفكك ، نتيجة اصرار الشعب العماني ، وعزمه على تحقيق أمانيه الوطنية ومثله .

وفي تموز (يولية) ١٩٥٧ وجه الامام غالب بن علي ، ندائه الشهير الى العالم العربي والى الدول العربية والى الجامعة العربية لم يد المساعدة للشعب العربي في عمان ، مساندة له في كفاحه المقدس ضد الاستعمار الغاشم .

فهز - هذا النداء - مشاعر الشعب العربي . وهدم - بلمحة بصر - كل تلك الحواجز المصطنعة

وبدت عمان . جزءا لا يتجزأ ، من كيان الامة العربية . ومثلا حيا من أمثلة البطولة والفداء لكفاح الامة العربية المجيدة .

وزادت ، ثورة الامام - بعد هذا النداء - اشتعالا . فتجددت الهجمات في كل بقعة من عمان . واستولى الامام على حصن بهلا في عمان الوسطى ثم على منطقة الفهود . كما حاصر الانكليز في المناطق الاخرى .

فكان الرد البريطاني غارات وحشية مجنونة بالطائرات والصواريخ والمدافع الثقيلة .

ففي ٢٦ تموز ١٩٥٧ ، أعلن سلوين لويد : ان سلاح الطيران الملكي قد بدأ عملياته .

وكان هذا السلاح ، قد بدأ عملياته فعلا . ولكن لا ضد المجاهدين في الجبهة أو المعازل . بل ضد المدن الآمنة . فدمر في ٢٧ تموز بالصواريخ والقنابل - مدينتي نزوى - العاصمة - وازكي ، تدميرا كاملا . وقتل نساءهما وأطفالهما والعجز فيهما بلا تفريق . فنادى الامير الحارثي - نائب امام عمان الشرعي - جميع الامم المحبة للسلام ، وجمعيات الصليب الاحمر الدولية ، تقديم المساعدات الطبية للجرحى واللاجئين .

وفي ٣١ تموز ١٩٥٧ تبين للسلطات البريطانية مدى صلابه المقاومة الوطنية وعنف المعارك التي تخوضها . وأدركت ان هذه المعارك انما تزيد في نيران الثورة العربية في عمان اشتعالا . واضطرت ان ترسل أحد كبار قوادها (الجنرال جوفري بون) لمفاوضة سلطان مسقط ، والاتفاق معه على تعزيز القوات الانكليزية . بارسال قوات جديدة

الى ميادين عمان . والا قضت الثورة العربية على العدوان وعلى قواه الاحتياطية (حكام مسقط) قضاء مبرما .

وأرسلت القوات البريطانية - للمرة الثالثة - بكميات كبيرة وعلى عجل . وبدأت هجوما مركزا جديدا بقيادة (روبرتسون) قائد القوات البريطانية في الشرق الاوسط .

وبدأ هذا القائد ، خطته لشق الطريق الى المدن العمانية المهمة ولا سيما الى العاصمة نزوى .

فكان المجاهدون العمانيون ، يقابلون خطط روبرتسون ، بخطة معاكسة تحبطها . فتعرقل سير الحملة وتكبدها الحسائر الفادحة .

حتى ان القادة البريطانيين بدأوا يلاحظون ان طول المعارك وامتداد الحرب لا بد ان تؤدي الى تحطيم النفوذ البريطاني في منطقة الخليج العربي . وكل مناطق النفوذ الانكليزية الاخرى في الشرق الاوسط ، نهائيا .

وها قد مضى - الآن - عامان آخران على ثورة يوليو ١٩٥٧ . وعلى العدوان الانكليزي الغاشم . وعلى عمليات الحرق والتدمير والتقتيل بالجملة .

ارتفعت قوات الانكليز - خلالها - الى (١٥٠) ألفا بالإضافة الى قوات الخائن سعيد بن تيمور . مزودة بالاسلحة الحديثة والمعدات الكافية والطائرات والصواريخ وكل أنواع آلات التدمير - دون ان تستطيع انكلترا أو أعوانها كسر شوكة الشعب العماني أو اخضاعه لقانون القوة والعدوان .

نعم - اليوم - وبعد مضي سنتين كاملتين . يخوض شعب عمان الباسل معركة فاصلة رهيبة تشمل الجبل الاخضر وسفوحه . وتمتد منها الى جميع الجهات . اليوم . دور المعارك الرهيبة في تنوف وفرق والبركة والشرجة وكمه . والعوابي . معارك يريد الانكليز ان يحولوها الى مجازر بشرية . وقد استطاعت أسلحتهم الثقيلة أن تفعل ذلك في بعض الجهات .

نعم اليوم . اذ أسمع . باذني وعواظي وعقلي . صوت عمان الباسلة تستنجد بالامة العربية . ان ترمي بثقلها في هذه المعركة الضروس . أو من ايماننا لا يتزعزع بأن عمان ستتحرر . وانها ستلقى بالاستعمار وأعوانه . الى البحر . وتكنس أرضها

الطيبة من أرجاسهم .. وتعلو في ربوع الجبل الاخضر - المخضبة
صخوره بالدم - راية القومية العربية .. راية التحرر .. والانعتاق
والامن والوحدة .

ماذا يريد الشعب العربي في عمان :

وبعد .. فقد افترضت ألا عيب الاستعمار الانكليزي في عمان وفي
غير عمان ..

وأدرك الشعب العربي - في كل مكان - ما هي أغراض المستعمرين
من وراء أعمال العدوان الاثيمة .. كما أدركت الامة العربية - أكثر
من كل شيء - ان هذه المآسي لا يمكن ان تنتهي ، الا اذا قضى على الداء
واجتث جذوره من الاساس .

وان الامة العربية لا بد ان تقضى عليه . فقد بدأت نضالها ضده ،
في جبهة واحدة . متراسة ، تمتد من الخليج الى المحيط . وعززت
وحدة نضالها بالقول والعمل .. في الداخل وفي الخارج .. وبعثت
المعركة روح الوحدة والاخاء في صفوف المجاهدين . فحقق العمانيون
هذه الوحدة على خير وجه .

فأبناء المدينة وأبناء القرية .. القبائل الحضرية والبدوية ..
عرب الشمال وعرب الجنوب .. وكل عربي يعيش في عمان ، يدرك
ان المعركة انما هي معركة الشخصية .. المعركة التي ترتبط بها
سعادته أو شقاؤه .. وسعادة أبنائه وأحفاده ، أو شقائهم ، وانه
اذا لم يبذل - لها - من ماله ودمه فلن يستطيع كسبها .

لذلك فقد صمم الشعب العربي في عمان ، على المضي في المعركة ،
حتى نهايتها الطيبة . حتى النصر . وأعلن : انه لن يغمد سلاحه الا
اذا حقق أهدافه الكبرى .

ووقف قائده المجاهد الامام غالب بن علي في ٤ آب ١٩٥٧ ليعلم
- بنفس الاصرار والعزم - ان القتال لن يتوقف .. حتى ينتزع
العمانيون حقهم كاملا في الحرية والاستقلال والسيادة .. ان الشعب
العماني ، لن يقبل بوقف القتال ، الا اذا اعترف المعتدون باستقلال
عمان .

وقد وجه الامام نداه - هذا - الى المجاهدين المناضلين في عمان
وناشدتهم فيه باسم الدين والمثل وباسم القومية العربية ، الوقوف
صفا واحدا في وجه المعتدين .

فماذا يريد ان يحقق شعب عمان .. لوطنه بعد النصر ..؟

وماذا يريد الشعب العربي لعمان المجاهدة البطلة ..؟

عمان المستقبل ..؟

يريد الشعب العربي في عمان .. ان ينتصر .. ليحقق لعمان
الاهداف الوطنية الكبرى التي يكافح من أجلها كل شعب .. نجملها
فيما يلي من النقاط :

أولا : تحرير الوطن العماني ساحلا وادخلا ، من الاستعمار
الانكليزي ومن حكم العملاء والاذناب والخونة أمثال سعيد بن تيمور
وحكومته . ومن التدخل الامريكي الذي بدأ يتسلل لنهب ثروات
عمان الدفينة . ومن حكم الاقطاع والرجعية ، التي يسندها
الاستعمار ويقويها . ومن شركات الاستعمار الاحتكارية ومؤسساته .
ومن جميع القوى الاحتياطية الاخرى التي تقف الى جانبه ضد الشعب .
ثانيا : تثبيت الحكم الديمقراطي الشرعي القائم على نظام الشورى
والانتخاب .. ألا وهو حكم الامام غالب بن علي المنتخب من قبل
الشعب ، والذي يمثل ارادة الشعب ، ويعتمد على مشورته . وذلك
لكي ينتعش الشعب العربي في عمان ، وينهض في ظل حكم عادل
تسوده المساواة واحترام حقوق الرعية . والايمان بالمثل الديمقراطية
التي كانت منذ القديم ، تقود شعب عمان الباسل نحو القوة والعزة
والمنعة .. والتقدم . وتعميم ذلك في عموم أنحاء عمان ساحلا
وداخلا .

ثالثا : تحقيق الوحدة الوطنية ومحو آثار الحمية الجاهلية الى الابد
.. وتطوير الشعب العربي وضمان تقدمه ونشر التعليم والصحة
والامن بين ظهرانيه .

رابعا : تحقيق السيادة الكاملة لعمان . والاستقلال التام الناجز .
في ظل حكم الشعب . دون ان ينازع الشعب العربي في عمان - على
هذه السيادة - منازع ، داخليا وخارجيا . مع طرد المستعمرين من
الجزر ، وتحقيق الوحدة الوطنية بين هذه المناطق الطبيعية في ظل
الاستقلال وسيادة الشعب .

خامسا : تحرير البلاد سياسيا من التبعية واقتصاديا واجتماعيا
في وقت واحد .

سادسا : تصنيع البلاد ، تصنيعا حديثا ، واستثمار ثرواتها

المعدنية لصالح الشعب • ورفع مستوى الزراعة • وتعميم الري •
وفتح الطرق • وتوثيق علاقات عمان ببقية أجزاء الوطن العربي •

سابعاً : توثيق علاقات عمان بالامة العربية وربط كفاحها بكفاح
الامة العربية ، في سبيل تحقيق آماني العرب الكبرى في الوحدة
والتححر والتطور •

وهكذا يتاح لعمان العربية المستقلة المنتصرة •• ان تلحق بالركب
العربي ، وان تنضم الى موكب الطليعة المتحررة في البلاد العربية •
وان تساهم جديداً في تحقيق نهضة الامة العربية • وتحقيق وحدتها
الشاملة •• واحتلال مكانها الطبيعي في سلم الحضارة الانسانية
الحديثة •

هذا ، ما يدفع المجاهدون العمانيون العرب ، دماءهم في سبيله ••
ولا بد ان يؤخذ ، عنوة واقتداراً ، ما تبذل في سبيله الدماء •
ان معركة عمان معركتنا •• معركة الجمهورية العربية المتحدة ••
معركة الجزائر وفلسطين • معركة العراق ولبنان والاردن •• وكل
بقعة عربية أخرى •

انها معركة القومية العربية ضد الاستعمار وأعوانه •• وقواه
الاحتياطية في الداخل والخارج • من أجل التحرر وانشاء وطن أفضل
وما الحركة الوطنية في عمان الا جزءاً من الحركة الوطنية العربية
العامة •• وهي من أنقى هذه الحركات •• وأكثرها أصالة ، وأشدّها
اتصالاً بنضال العرب • لانها حركة تنبع - في الأساس - من أعماق
الشعب • وتهدف الى احياء أجمل القيم من تراث الشعب العربي في
عمان • تلك القيم الرفيعة التي كانت للشعب العماني - على مر
العصور - منارة وهدى •

والحركة الوطنية العمانية لا بد ان تنتصر •• لانها :

أولاً : تعتمد على تأييد الجماهير في المدن والقرى •• وبين العشائر •
ثانياً : لان رائدها وشعاراتها ، اقامة حكم ديمقراطي يعتمد على
الشورى في الحكم ، وينبع من ارادة الشعب •• ويهتدى - بهذه الارادة
- قبل كل شيء •

ثالثاً : لانها حركة عربية أصيلة ، تعتمد على تأييد الشعب العربي
في كل مكان •• وتقوم على أساس توحيد عمان •• وربط كفاحها مع
كفاح العرب التحرري الثوري • الاشتراكي • المتطور •

رابعاً : لانها ربطت - منذ اللحظة الاولى - مصيرها بمصير حرية
العرب ووحدتهم • وبمصير الحرية في العالم •• واستمدت من تأييد
الشعوب المحبة للحرية والمكافحة للاستعمار عوناً لها وسنداً •
فلا بد ان يكون - والحالة هذه - انتصار الشعب العربي في عمان ،
مرحلة جديدة من مراحل الوحدة العربية الشاملة • والقضاء على
التدخل الاستعماري ، وانهاء احتكاراته واجتثاث مصالحه من أرضنا
الطيبة ••

لقد أفاقت بريطانيا في تموز •• ثلاث مرات على التوالي (في عام
١٩٥٢ وفي عام ١٩٥٧ وفي عام ١٩٥٨) ، لتجد قلاعها تتصدع
وتنهار تحت ضربات النضال العربي ، بعد ان ظلت صامدة لزمان
طويل •• ولتجد خدامها الاوفياء •• الذين أفنوا أعمارهم في تعفير
جباههم على أقدامها •• وفي تدعيم مصالحها يتساقطون كالخرق
البالية ، تدوسهم أقدام شعوبهم •

فانهارت أعصابها - التي طالما فاخرت بمتانتها - وطاشت سهامها
•• فاذا هي تقود اعتداءات انتقامية أثيمة ضد شعب عمان الاعزل •
واذا هي ترتكب مجازر بشرية رهيبة ، تقشعر لها الابدان •• ضد
الابرياء والشيوخ والنساء والعزل من السلاح •• دون ان تدرك ان
ساعاتها الاخيرة قد دنت •• وان الارض - بأسرها - تميد تحت
أقدام الاستعمار المستعمرين •• جملة وتفصيلاً •• وان النصر الاخير
للشعب •

وان حرية العرب ، ووحدتهم ، وتطورهم •• الديمقراطي ،
الاشتراكي التعاوني السليم •• انما هو قدر آت لا ريب فيه •

تم الكتاب



تقدم

اخترنا لك

السياسة العالمية

تأليف: أ. أرميانسكي

الكتاب الذي يفصل الحرب عن القومية ، نشأتها
وتطورها ومقوماتها والأطوار التي تمر بها الدولة
والعلاقات بين الدول وتصير هذه العلاقات
والروافع التي تحرك السياسة العالمية.

محمّد

١٧٥ صفحة

يطاب من الباعة في كل مكان ومن المكتبات الشهيرة

كتب فوهبة

العدد القادم

المواصره

على برودل العرب

بمقدم

محمود الشراوى

يصدر يوم الثلاثاء ٥ مايو سنة ١٩٥٩

الثمان قرشان

روايات عالمية تقدم :

جاسوسية موراى

بقلم الكاتبة الروسية

نورا موراى

♦ أدوع ما كتب عن الجاسوسة ولا غرابة فى ذلك فان
نورا موراى مؤلفة الرواية ابنة رئيس البوليس
السياسى الروسى (الاوجبو) وقد شاعت لها الاقدار
ان تعمل فى الجاسوسية .

♦ الرواية التى نقرأ فيها اغرب ما يخطر لك على بال .
♦ الرواية التى تصور لك ما يدور فى روسيا وما يحدث
فيها من أحداث مهمة فى الغرابة ، فالأغنيات
العاطفية متنوعة ، ومن يتعلم الرقص الغربى عد خائنا
مارقا .. وغير ذلك من المتناقضات والغرائب .

مع الباعة فى كل مكان الثمن ٣ قروش

العدد القادم من روايات عالمية

السقيان

بقلم الكاتب الانجليزى الكبير

م ١٠ سترونج

♦ قصة الصراع بين طبيعتين متنافرتين
فى تحليل عميق ، وسرد مهمت ،
وأصالة فنية رائعة

تصدر السبت القادم الثمن ٣ قروش

فهرس

التفوذ الانكليزى : تغلفه • تطوره منافسوه	٩٩
اثر التدخل الاجنبى فى انقسام عمان	١١٢
اول معاهدة بين بريطانيا وبلاد العرب	١١٨
سياسة تدمير الاسطول العربى	١٢٥
نهوض القبائل فى الشمال يساند النهوض القبائلى فى الجنوب	١٣٦
التدخل الانكليزى فى القرنين الاخيرين	١٤٩
محصلة الاستعمار الانجليزى فى مسقط وعمان	١٥٧
استقلال عمان الداخلية	١٧٠
تدخل الاستعمار الأمريكى ضد شعب عمان	١٨٠
العدوان البريطانى فى عام ١٩٥٥	١٨٩
ثورة يولية عام ١٩٥٧	٢٠٢

خرايط

موقع عمان بالنسبة للهند	٩٨
موانئ الاسطول العربى	١١٥
تضاريس عمان	٢٠٣

صدر يوم الاحد ٣ مايو ١٩٥٩